

مَجَلـة شَهـريَّـة اسْلاميَّـة أَدبيَّـة

تصدر عن دار التأليف والترجمة، بنارس

المجلد (٤٧)	صفر–ربيع الأول ١٤٣٧هـ
العدد الثاني عشر	ديسمبر ٢٠١٥ م

المشـرف العام — **عبـد اللّه سعـود بن عبـد الوحيد**

رئيس التحريـر — **أسعد أعظمي بن محمد أنصاري**

☆ عنوان المراسلة:	**صـوت الأمـة:** بى ١ / ١٨ جى، ريورى تالاب، بنارس، الهند The Editor, Sautul Ummah B-18/1-G, Reori Talab, VARANASI - 221010 (INDIA)
☆ ترسـل شيـكات الاشتراک بهذا الاسم:	**دار التاليف والترجمة** Name: **DARUT-TALEEF WAT-TARJAMA** Bank: **ALLAHABAD BANK**, Kamachha, VARANASI A/c No.: **21044906358** IFSC Code: **ALLA0210547**
☆ الاشتراک السنوي:	في الـهـند (١٥٠) روبيــة، في الخارج (٤٠) دولار بالبريد الجوي، ثمن النسخـة (١٥) روبيــة

موقع المجلة على الانترنت: www.sautulummah.org

محـتــويــــات الـعــــدد

الافتتاحية

دور المعلم في العملية التعليمية

أسعد أعظمي بن محمد أنصاري

إن المدارس الإسلامية في الهند قامت بدور بارز في الحفاظ على الهوية الإسلامية والكيان الديني للمسلمين. إن المسلمين حكموا البلاد لنحو ثمانية قرون، وبعد سيطرة الإنجليز على الهند وتغلبهم على خيرات البلاد أصبح المسلمون في مؤخر الركب وبدأوا يعانون من هجمات شرسة من قبل المستعمرين على دينهم وعقيدتهم وثقافتهم وتراثهم. فالمدارس الإسلامية والقائمون عليها والعاملون فيها من العلماء والدعاة واجهوا المستعمر وصمدوا في وجهه وردوا كيده في نحره. وعملوا على تحصين الأمة دينيا وعقائديا حتى لا تسقط في حبائل المنصرين والمستشرقين.

هذه المدارس التي كانت تعتبر معاقل الإسلام وحصون الإيمان تشكو الآن من ضعف تأثيرها في المجتمع وقلة نفعها مع كثرة عددها وتحسن أوضاعها. ولا يزال المحللون والمختصون يبحثون عن أسباب هذا الضعف ووجوه هذا التقهقر.

وبما أن المعلم أحد العناصر الرئيسية في العملية التعليمية، وله أبرز الأدوار في تربية الأجيال وإعداد الرجال وتكوين الكوادر، فإني أرى من المناسب أن أذكّر نفسي وإخواني المنخرطين في سلك التدريس ببعض الصفات التي يجب أن يتصفوا بها، وببعض المسؤوليات التي يجب أن يتحملوها، وببعض السلبيات التي يجب أن يتجنبوها، حتى تثمر جهودهم وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويوفقوا لإخراج الجيل المؤمن وإعداد الإنسان الصالح، كما هو مأمول منهم ومرجو من وظيفتهم.

فأول ما يجب أن يكون في بال الجميع هو أن المدرس في المدارس الإسلامية يكون من العلماء الذين لهم مكانة عالية ودرجة رفيعة عند الله عز وجل. والآيات القرآنية التالية تنطق بفضلهم وتشهد برفعتهم:

- {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات – المجادلة:١١}

- {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط – آل عمران:١٨}
- {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون – الزمر:٩}.

ومن الأحاديث النبوية الدالة على عظم شأنهم وعلو درجتهم:

- "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين". (متفق عليه)
- "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب" (صحيح الجامع الصغير).
- "العلماء ورثة الأنبياء" (صحيح الجامع الصغير).

ولا شك أن الإنسان لا يرتقي إلى تلك الدرجات العالية المذكورة في نصوص الوحيين بمجرد الحصول على الشهادات. بل يجب أن يتحلى بتلك الصفات التي تبلغ صاحبها إلى مصاف العلماء الربانيين. قال الله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء – فاطر:٢٨} وقال: {ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون – آل عمران: ٧٩}.

إن العالم الرباني والمعلم الناجح يجب أن يتذكر دائما أنه قدوة لمن جعلهم الله تحت يديه. فطلبته وتلاميذه لا يتعلمون من أقواله وخطبه ومحاضراته فقط، بل يتعلمون من سلوكه وتصرفاته وأعماله وأخلاقه أيضا. وإذا وجدوا هناك تضاربا بين أقوال المعلم وأفعاله، وبين أوامره وأعماله، سقطت هيبته من نفوسهم، وهانت عندهم مخالفته. قال عز من قائل:

{أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم أفلا تعقلون – البقرة: ٤٤}.

وقال:

{يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون – الصف: ٢-٣}.

وقال بلسان شعيب عليه السلام:

{وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ... – هود: ٨٨}

ويقول الشاعر مخاطبا للمعلم:

يا أيهـا الرجـل المعلم غيـره ... هـلا لنفسـك كان ذا التعليم؟

وأراك تلقح بالرشـاد عقـولنـا ... نصحا وأنت من الرشاد عديـم

لا تنـه عـن خلق وتـأتي مثله ... عار عليـك إذا فعلت عظيـم

وابدأ بنفسك وانهها عن غيـهـا ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وهناك تقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقـول منـك وينفـع التعليم

(جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر)

وأول ما يجب أن يعتني به كل مسلم فضلا عن الداعية والمعلم: الصلاة، فالصلاة عماد الدين وأول واجب على كل مكلف بعد الشهادتين، وهي الفاصل بين المؤمن والكافر، وهي التي تبني عليها بقية أعمال العبد في الغالب، ولذلك قيل: "من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع" وقد ورد في حديث صحيح صريح مرفوع: "أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة: الصلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله". (الصحيحة).

وكان سلفنا الصالح عند قيامهم بتدريس الحديث والعلوم الإسلامية لا يقبلون من طلابهم أي تفريط في هذا العمل، بل كانوا هم يلتزمون به أشد التزام، ويربون تلاميذهم ويعودونهم على ذلك. يقول أبو عصمة بن عصام البيهقي: "بِتُّ ليلة عند أحمد فجاء بالماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء، فإذا هو كما كان. فقال: سبحان الله! رجل يطلب العلم، لا يكون له ورد من الليل؟" (مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي: ٢٧٣).

ومما يجدر ذكره في هذا المقام هو أن من المسؤوليات الملقاة على عاتق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: التعليم والتزكية، وقد وردت التزكية مقرونة بالتعليم في أربع آيات، قدمت التزكية على التعليم في ثلاث منها. وهذا يعطي مؤشرا واضحا لأهمية

التزكية وشدة العناية بها جنبا إلى جنب للتعليم. لأن التعليم المعزول عن التزكية يخرج جيلا من المتعلمين قد لا يعرف حقوق الله ولا حقوق العباد.

ومعلم البشرية محمد صلى الله عليه وسلم قام بمهمة التزكية والتعليم خير قيام، وخلّف أصحابا وصفوا بأنهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار. وهؤلاء لم يستفيدوا من خطبه ومواعظه فحسب بمقدار ما استفادوا من هديه وأخلاقه، لأنهم كانوا يرون في شخصه نموذجا عمليا للتعليم الذي كان – صلى الله عليه وسلم – يريد تلقينهم إياه. فقد كان – صلوات الله وسلامه عليه – قرآنا يمشي على الأرض كما وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن خلقه وهديه، حيث أجابت بقولها: "كان خلقه القرآن".

والعلماء الربانيون في كل زمان ومكان سلكوا هذا المسلك القويم، وضربوا أروع الأمثلة في هذا الشأن. فلم يواجهوا كبير عناء في سبيل تنشئة الأجيال وإعداد الرجال وتزكية النفوس. وإنما كانت حياتهم وسيرتهم تعمل في الطلبة وعامة الناس عملا لا يمكن أن تعمله دروس ومحاضرات السنوات.

يقول الإمام الزاهد يونس بن عبيد البصري رحمه الله عن الحسن البصري رحمه الله:

"إن كان الرجل ليرى الحسن، لا يسمع كلامه، ولا يرى عمله، فينتفع بعلمه". (تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ٦ / ١٠٩)

ويقول عبد العزيز بن الماجشون: "إن رؤية محمد بن المنكدر لتنفعني في ديني". (سير أعلام النبلاء: ٥ / ٣٦٠).

وقال أبوبكر بن المطوعي: "اختلفت إلى أبي عبد الله – الإمام أحمد بن حنبل – ثنتي عشرة سنة، وهو يقرأ المسند على أولاده، فما كتبت عنه حديثا واحدا، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه". (المصدر السابق: ١١ / ٣١٦)

وعن الحسن بن إسماعيل عن أبيه قال: "كان يجتمع في مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، نحو خمس مائة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت". (المصدر السابق)

ومما أضر بالتعليم والتربية وذهب ببركتهما أن التعليم أصبح – وللأسف – سلعة تباع وتشترى. وصارت نظرة المتعلم إلى المعلم كنظرة المشتري إلى البائع، لا يهمه إلا أن يحصل على المبيع ويأخذ سبيله، وكانت مدارس العلوم الدنيوية ابتليت بهذا الداء أولا، ولم تلبث المدارس الإسلامية حتى أصيبت بالداء نفسه، إلا من حفظ الله منها.

ومهما يكن من أمر فما زال الأمل معقودا بالعلماء أنهم يقدرون الظروف ويلمسون الأخطار المحيطة بمعاقل الإيمان وحصون الإسلام، وأن عودة بهائها ونضارتها مرهونة بعودتهم إلى منهج سلفهم في العلم والعمل والإخلاص والورع، بل إن صلاح الأمة بأسرها وصلاح العامة بكاملهم مرتبط بصلاحهم ورشدهم.

يقول سفيان الثوري رحمه الله:

"صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس: القراء والأمراء". (كتاب المجالسة لأبي بكر الدينوري: ٢ / ٣٠٨)

وعبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله:

يا معشر القرّاء يا ملحَ البلد　　　ما يُصلح الملحَ إذا الملحُ فسد

وقد ذكر معظم هذه الأقوال والآثار الأستاذ أحمد حاج محمد عثمان في مقدمة تحقيقه لكتاب "أخلاق العلماء" للآجري، وأرى من المناسب أن أختم هذه السطور بنقل اقتباس من انطباعاته ومشاهداته المتضمنة لتصوير الوضع المؤلم والواقع المخزي لبعض المنتسبين إلى العلم والدعوة. يقول – جزاه الله خيرا – بعد ذكر بعض صفات العلماء العاملين:

"إذا كان هؤلاء علماء الآخرة فهنا صنف آخر من العلماء الجاهلين، علماء الدنيا والدرهم والدينار، والشارة والرفاهة، قذى العيون، ومرض النفوس، فُجع المسلمون بهم، كما فجعوا بقياداتهم السياسية، ومصيبتهم بقياداتهم الدينية لا تقل فداحة من مصيبتهم في قياداتهم السياسية. بل أشد بؤسا وأعمق ضررا، لأن القيادة الدينية والسياسية تؤثر في الأمة تأثيرا عاما صلاحا وفسادا.

أنت ترى في عرض الأرض وطولها علماء يهزون المنابر، ويلقون الخطب الرنانة، قد بحت أصواتهم بها، وملّت حناجرهم منها، وملأت مؤلفاتهم وبحوثهم وتحقيقاتهم الساحة، تسمع لهم صولات في الفضائيات، وترى لهم جولات في الميادين، ولكن لا ترى في الناس ذلك التأثير المنشود، وهنا يتساءل المدهوشون من هذا الواقع الأليم: أين الخلل؟ وأين مكمن الداء؟ ولا شك أن الخطب جلل، وأن الأدواء كثيرة، ولكن من أشدها فظاعة وأسوئها قباحة وأعمقها تأثيرا، وأعظمها فسادا ضعف الإخلاص في العلم والعمل، ونكد الانفصام بينهما لدى كثرة كاثرة من هؤلاء العلماء في شؤون الأموال والوظائف، والترف والملذات، ومشكلات التعاظم والتعالي والتحاسد والاستئثار، وسوء الأخلاق والمعاملات، والتعصب للأعراق والأحساب، والنزق وبذاءة المنطق وسلاطة اللسان، مما ينفر الناس منهم، ويصدهم عن الانتفاع بالعلم الذي يحملونه، وقد لا يكون عند بعضهم شعور بهذا الانفصام، وقد لا يصدقهم أصدقاؤهم المخالطون له، والصديق من صَدَقَك، لا من صدَّقَك". (مقدمة أخلاق العلماء للآجري ١٩ – ٢٠).

وكلنا نعلم أن معلم الأمة وهادي البشرية – صلى الله عليه وسلم – ذكر للعلم قسمين: نافع وغير نافع. وأرشد إلى الابتهال إلى الله للعلم النافع والتعوذ به من العلم الغير النافع، فقال – صلوات الله وسلامه عليه – :

"سلوا الله علما نافعا، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع" (حسن: السلسلة الصحيحة).

ففي ختام هذه الأسطر أتضرع إلى الله العلي القدير وأسأله سبحانه لي ولكل منتسب للعلم والدعوة العلم النافع والعمل الصالح مرددا للأدعية المأثورة التالية:

"اللهم إني أسألك علما نافعا، ورزقا طيبا، وعملا متقبلا" (صحيح ابن ماجه).

"اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها" (مسلم).

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

❖❖❖

إشادة وتنويه

جهود المملكة العربية السعودية
في ضمان السلامة الصحية للحجاج

الأستاذة بوفدح بديسي وحيدة
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر

تشرُف المملكة العربية السعودية بخدمة الحرمين الشريفين، وعلى الرغم من استمرار استقبال زوار بيت الله الحرام والأماكن المقدسة الأخرى على مدار العام، إلا أن بدء موسم الحج من كل عام تصاحبه حالة من الاستنفار التام، والعمل الدءوب المتواصل من كافة الأجهزة الحكومية، ومختلف فعاليات المجتمع المدني المختصة في خدمة الحجاج والمعتمرين والزوار، ليوفروا لهم الأمن والراحة والاستقرار، ويمكنوهم من تأدية مناسكهم في يسر وطمأنينة.

ويحظى قطاع الخدمات الصحية بالعاصمة المقدسة والمشاعر بدعم سخي من حكومة خادم الحرمين الشريفين، ويعد الحفاظ على السلامة الصحية للحجاج من أهم أولوياتها. ونقصد بالسلامة الصحية في بحثنا هذا: العناية بصحة الحجاج والمعتمرين والزوار بوقايتهم من مختلف الأمراض، وتوفير المرافق الاستشفائية، والحرص على تحقيق موسم حج خال من الأوبئة، عن طريق تجنيد كافة الأجهزة الحكومية ومؤسسات المجتمع المدني لخدمة ضيوف الرحمن في هذا المجال. وانطلاقا من هذا المفهوم سنتطرق من خلال هذا المحور من البحث إلى:

١ - تطوير المنشآت الاستشفائية والمرافق الصحية بالعاصمة المقدسة والمشاعر المقدسة.

٢ - الإجراءات المتخذة في الحالات العادية والحالات الطارئة (أنفلونزا الخنازير مثالا).

٣ – التوعية الصحية والطب الوقائي من خلال جهود المؤسسات الرسمية والمجتمع المدني السعودي.

١ – تطوير المنشآت الاستشفائية والمرافق الصحية بالعاصمة المقدسة والمشاعر:

تعد المحافظة على صحة الحجيج وسلامتهم البدنية إحدى الأولويات الرئيسة للدولة السعودية، لذلك فإنها تسخر كافة إمكاناتها وقدراتها في المجال الصحي حتى تحافظ على صحة الحجيج من جهة، وتحول دون انتشار الأمراض الوبائية التي قد تنشأ بسبب كثرة أعداد الحجاج، وتزاحمهم الشديد عند بعض المناسك كالسعي والطواف، ورمي الجمرات من جهة أخرى. وتضم المشاعر المقدسة سبعة مستشفيات كبيرة إلى جانب عدد كبير من المستوصفات، وتشتمل خارطة الخدمات الطبية بالمشاعر على ٣ مستشفيات بمشعر عرفات وهي:

- مستشفى عرفات العام بسعة ٢٩٠ سريرا، تتضاعف إلى ٤٣٠ سريرا في وقت الذروة، وعند وجود حالات طارئة.
- مستشفى جبل الرحمة الذي تبلغ الطاقة السريرية له ٢٦٥ سريرا، إضافة إلى ١٧ سريرا للعناية المركزة، ويتم رفع طاقته في حالة الطوارئ إلى ٤٠٠ سرير.
- مستشفى نمرة بسعة ٨٤ سريرا وتصل وقت الطوارئ إلى ١١٤ سريرا.

وفي مشعر منى توجد ٤ مستشفيات هي:

- مستشفى منى العام للطوارئ الذي تبلغ سعته السريرية أكثر من ٣٠٠ سرير، وقد تم تطويره وتغيير موقعه ضمن مشروعات خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز – رحمه الله – حيث يقع مستشفى منى العام على طريق الملك عبد العزيز بمشعر منى، وله مداخل على طرق المشاة المؤدية للجمرات [١].

---

[١] عبيد الله الحازمي، اعتماد خطة الحج الصحية بالمشاعر المقدسة، الموقع السابق لصحيفة الجزيرة.

- مستشفى الشارع الجديد: بسعة ١٢١ سريرا، تصل في حالات الطوارئ إلى ١٧١ سريرا.
- مستشفى منى الوادي: بسعة ١١٨ سريرا، تصل في حالات الطوارئ إلى ١٦٨ سريرا [١].

بالإضافة إلى المستشفيات التي تتواجد في محيط المشاعر المقدسة، توجد عدة مستشفيات ومراكز صحية في محيط مكة المكرمة عامة، وهي مستشفى النور التخصصي بالعاصمة المقدسة، ومستشفى حراء العام، وهي من أحدث المستشفيات في المنطقة، ومستشفى الملك عبد العزيز، ومستشفى الملك فيصل، ومستشفى أجياد العام، ومستشفى ابن سينا بحراء وهو المستشفى الوحيد بالمملكة المتخصص لعلاج مرض الجذام على مستوى الدول العربية والخليجية، ويدعم هذه المستشفيات عدد كبير من مراكز الرعاية الصحية الأولية والمراكز الصحية الموسمية، التي تعمل في الحج وفي شهر رمضان، وهناك المراكز الطبية التخصصية مثل مركز التأهيل الطبي، ومركز طب الفم والأسنان، ومركز أمراض الكلى، ومركز علاج أمراض السكر، ومركز السموم والكيمياء الشرعية، إضافة إلى المراكز الصحية الإسعافية داخل المسجد الحرام، وهي مخصصة للحالات التي تتطلب علاجا فوريا إسعافيا ويتولى الإشراف على هذه المراكز مستشفى أجياد العام [٢]. ويتم تجهيز كل هذه المستشفيات للعمل قبل موسم الحج في كل عام، ويشاركها في الخدمة الطبية ٤٦ مستوصفا بمشعر عرفات و ٣٠ مركزا طبيا بمشعر منى و ٦ مراكز أخرى بمشعر مزدلفة، تعمل جميعا على مدار الساعة أثناء موسم الحج في كل عام. على حين يتم تخصيص مواقع تختار بعناية في كل من مشعر عرفات ومشعر منى لتخزين الأدوية، لتوزيعها حسب الاحتياج على المستشفيات التي تعد مجهزة تجهيزا كاملا على مدار

---

[١] شبكة هجر الثقافية: www.hajr.net (١٥ / ٩ / ٢٠٠٩م)

[٢] المرجع السابق.

العام، إلا أنه قبيل موسم الحج تجري لها أعمال الصيانة للتأكد من صلاحيتها وفعاليتها، ويتم تزويد هذه المرافق الصحية بالكوادر الطبية المؤهلة [1]. وفيما يخص تطوير المرافق الصحية، فإن وزارة الصحة السعودية تضع في كل عام خطة تفصيلية تطلق عليها اسم خطة الحج، تضمنها مجموعة من الإجراءات اللازمة التي تغطي الاحتياجات الخاصة بهذه المرافق، والتي يتم إعدادها من قبل المختصين بالوزارة، وتقوم الخطة على المحاور الأساسية الآتية:

- عمل الدراسات الميدانية لكل موقع طبقا للاحتياجات المطلوبة، والهدف ونوعية الخدمات المقدمة، والطاقة الاستيعابية بجميع المرافق الصحية العاملة على مستوى المشاعر المقدسة.
- عمل تصور كامل لجميع المشاريع المطلوبة في المرافق الصحية بالمشاعر المقدسة، يتم بناء عليه إعداد الهيكل العام والخرائط الخاصة بكل موقع.
- العمل على تنفيذ المشروع بصورة كاملة، بكل موقع أو على مراحل بما لا يؤثر على مستوى الخدمة المقدمة من خلال المرفق الصحي.
- التعامل مع المشاريع الطارئة والعاجلة بالمرافق الصحية بالمشاعر المقدسة، والتي يمكن من خلالها الاستفادة في تشغيل المرفق.
- التعاقد مع مكتب هندسي استشاري للقيام بعمل الخطة التطويرية للمرافق الصحية بالمشاعر المقدسة، والتصاميم الإنشائية، والمتابعة الميدانية لتنفيذ المشاريع تحت إشراف الجهة المختصة بوزارة الصحة.
- عزل كامل لأسطح المرافق الصحية بالمشاعر المقدسة، تحسبا لطهول الأمطار خلال مواسم الحج في الأعوام المقبلة. وقد بلغ إجمالي المبالغ المخصصة

[1] موقع شبكة هجر الثقافية، المرجع السابق.

للمشاريع التطويرية للمرافق الصحية بالمشاعر المقدسة في عام ١٤٢٩ هـ، ٤ ملايين ريال [١].

٢ – الإجراءات المتخذة في الحالات الطارئة:

يعتبر موسم الحج من أكبر التجمعات البشرية في العالم، حيث يتجمع أكثر من مليوني شخص في مكان واحد، وفي وقت واحد، وهذا التجمع الذي يضم حشودا من البشر من مختلف الأعراق، قادمة من عدة بلدان، بما تملك من خصائص وما تعتريها من ظروف، قد تكون مرتعا خصبا لظهور الأوبئة، وانتشار الأمراض المعدية، لكل هذا فإن الدولة السعودية تقف على أهبة الاستعداد بكل مؤسساتها وأجهزتها الحكومية والأهلية، لمواجهة أي طارئ، وتتم تلك المواجهة عبر اتخاذ مجموعة من الإجراءات الاحترازية واعتماد سلسلة من الاشتراطات الصحية تشمل الشق الوقائي والشق العلاجي، لضمان السلامة الصحية لضيوف الرحمن، ولمواجهة الحالات الطارئة تعمد المملكة لتنسيق الجهود بين مختلف العاملين في قطاع الحج والوزارات المعنية بشؤون الحجاج وفي مقدمتها وزارة الحج، التي تجند إمكاناتها للحفاظ على سلامة الحجاج ودرء أي طارئ أثناء موسم الحج، وذلك من خلال خطة عمل واضحة المعالم تنفذ كل عام تتمثل عناصرها في:

أولا: مرحلة ما قبل وصول الحجاج:

ويتم خلالها التواصل مع الحكومات وبعثات الحج الرسمية وإبلاغها بالتعليمات والاشتراطات الصحية، والتأكيد على الالتزام بها وخاصة ما يصدر عن وزارة الصحة في المملكة، أو منظمة الصحة العالمية والتأكد من استيفاء الاشتراطات الصحية قبل منح تأشيرات القدوم للحج، بما في ذلك التطعيم، واللقاحات اللازمة، بالتعاون والتنسيق مع ممثليات وسفارات المملكة في الخارج.

---

[١] موقع وزارة الصحة السعودية: www.moh.gov.sa/haj (١١ / ٨ / ٢٠٠٩م).

ثانيا: مرحلة ما بعد وصول الحجاج: ويتم فيها متابعة الحالات الصحية لجمع الحجاج، ورصد أي أعراض لأمراض معدية محتملة بالتعاون مع الجهات المختصة وذلك في مساكن الحجاج، ومخيمات نزولهم في المشاعر المقدسة، ونقل الحالات المرضية إلى المستشفيات والمراكز الصحية، ومتابعة الحالات المنومة في المستشفيات والتنسيق مع بعثات الحج والقنصليات محليا فيما يلزم، والتأكد من خلو العاملين في خدمة الحجاج من الأمراض المعدية، وتوافر الشهادات الصحية والتطعيمات اللازمة، ومتابعة التعاقدات الخاصة بوجبات التغذية وإخضاعها للاشتراطات الصحية، والتعاون والتنسيق مع الجهات المختصة في صحة البيئة، والإصلاح البيئي، وطباعة وتوزيع كتيبات ونشرات توعية عن بعض الأمراض.

ثالثا: تكليف الفرق الميدانية الخاصة بالطوارئ والعمليات في وزارة الحج ومؤسسات الطوافة الأهلية ومجموعات الخدمة الميدانية من المطوفين والأدلاء والزمازمة والوكلاء بمتابعة إجراءات السلامة والوقاية، طبقا للخطط المعدة لذلك [1].

وبالموازاة مع جهود وزارة الحج، تحشد وزارة الصحة كل إمكاناتها لتحقيق موسم حج خال من الأوبئة سواء كان ذلك في الحالات العادية أو في الحالات الطارئة، كتفشي وباء معين، وفي هذا الإطار نشير إلى الإجراءات المتخذة هذه السنة لمواجهة مرض أنفلونزا الخنازير أو ما يسمى بفيروس H١N١، فقد قامت المملكة باستضافة مجلس وزراء الصحة العرب، لدراسة التدابير الصحية والوسائل التوعية لمواجهة هذا الوباء، كما تم عقد مؤتمر دولي بمدينة جدة برعاية وزير الصحة، شاركت فيه CDC ومنظمة الصحة العالمية، كما رعى وزير الصحة السعودية الدكتور عبد الله الربيعة فعاليات ورشة عمل الإجراءات الاحترازية والوقائية لموسمي الحج والعمرة. وقد استضافت الوزارة في هذا الإطار ٥٠ خبيرا وعالما في مجال الفيروسات والأمراض المعدية، وأمراض الأنفلونزا من داخل المملكة وخارجها. وكان وزير الصحة قد وجه

[1] الموقع نفسه.

وكالة الوزارة بالطب الوقائي إلى الاستعانة بالخبرات الدولية المتخصصة من منظمة الصحة العالمية ومركز مكافحة العدوى والسيطرة – عليها – بالولايات المتحدة الأمريكية، إضافة إلى مشاركة أطباء واستشاريين من كافة القطاعات الصحية بالمملكة تضم أبرز الخبراء في مجال مكافحة الأنفلونزا، وأبرز المتخصصين في مجال الفيروسات للإسهام في وضع نظام للترصد والمواجهة الدقيقة، والتأكد من الإجراءات المتخذة في موسمي الحج والعمرة.

وقد أيد الخبراء المشاركون توصيات وزارة الصحة، التي توصي كافة المعتمرين والحجاج والقاطنين في الأماكن المقدسة والعاملين في خدمة ضيوف الرحمن، وكذلك كافة القادمين للعمرة والحج بأخذ لقاح الأنفلونزا الموسمية قبل أسبوعين على الأقل من السفر إلى الأماكن المقدسة، كما أوصوا بأخذ اللقاح الواقي من فيروس H١N١ لكافة الحجاج والمقيمين في الأماكن المقدسة، ومن يقوم على خدمة الحجاج في حالة توفره وإفرازه من الجهات العلمية، قبل السفر إلى الأماكن المقدسة بأسبوعين على الأقل، ودعوا على الحرص على قواعد سلوكيات تغطية الأنف عند العطس والسعال، واستخدام المناديل وغسل اليدين بالصابون والماء، واستخدام الكمامات عند اللزوم في الأماكن المزدحمة [١]. كما أوصوا بتأمين مكان مناسب للحجر الصحي للحالات التي تحتاج العزل قريبا من صالات قدوم الحجاج، ونصحوا الحجاج والمعتمرين من كبار السن والمصابين بأمراض مزمنة والأطفال والحوامل بتأجيل العمرة والحج هذا العام حرصا على سلامتهم، ودعا الخبراء المشاركون في الورشة لاستخدام أجهزة الرصد، والتسجيل الوبائي الآلي التي طبقت مؤخرا باستعمال تقنية الاتصال المعلوماتي الصحي، وذلك بإنشاء شبكة تواصل إلكتروني متطور ومتكامل لرصد هذا الوباء وغيره من الأوبئة للحصول على أدق المعلومات [٢]. لقد نجحت المملكة في ضمان مواسم حج خالية

---

[١] ورشة عمل بوزارة الصحة: www.hajr.net.work.net (١ / ٧ / ٢٠٠٩م)

[٢] الموقع نفسه.

من الأمراض الوبائية لعدة أعوام متتالية، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى العمل الدؤوب المنسق بين المملكة وكافة الجهات الصحية الدولية، في مجال تبادل المعلومات والخبرات المتعلقة بالنواحي الوقائية للأمراض الوبائية، وخرائط انتشارها وتغيير هذه الخرائط بمرور الوقت والتوعية بسبل الوقاية من هذه الأمراض على المستوى الدولي والإقليمي والمحلي. كما أن التوجيهات المستمرة للقيادة السعودية الحكيمة لكافة الوزارات والجهات المعنية في الدولة بالمساهمة بفاعلية في تقديم مختلف الخدمات المتميزة للحجاج – بما في ذلك وزارة الصحة – كانت المحفز الأساس من وراء تقديم خدمات ذات جودة عالية ترتقي لتطلعات ضيوف الرحمن [1].

٣ – التوعية الصحية والطب الوقائي من خلال جهود المؤسسات الرسمية والمجتمع المدني السعودي:

تبرز الخدمات الصحية في مواسم الحج والعمرة على أنها أهم جانب من جوانب الخدمة المقدمة لضيوف الرحمن، ذلك أن تواجد أكبر حشد بشري سنوي في العالم، في مكان واحد وفي زمان واحد قد يكون مصدرا لانتشار بعض الأمراض المعدية أو الأوبئة، والتي يمكن أن تشكل تهديدا للصحة العامة في العالم. لذلك تتضافر جهود المؤسسات والأجهزة الحكومية السعودية مع جهود جمعيات ومؤسسات المجتمع المدني، للوصول بالخدمات الصحية في مواسم العمرة والحج إلى أعلى المستويات وأحسنها، وتقوم هذه الجهود بالأساس على تقديم المواد التوعوية من جهة واستخدام الطب الوقائي من جهة أخرى في صورة من التناسق قل نظيرها في العالم، تبدأ مع نهاية كل موسم حالي لتستمر إلى نهاية الموسم التالي. فإذا قمنا بوضع مخطط تنظيمي للمؤسسات التي تساهم في تقديم الخدمات الصحية للحجاج، نجد أن هذا المخطط يشتمل على العديد من الجهات الحكومية والأهلية التي تعمل وفق نظام دقيق تتوحد فيه الجهود وتتناسق

---

[1] د. م، المملكة تنجح في تحقيق السلامة الصحية للحجاج، موقع وزارة الصحة www.moh.gov (١٨ / ٧ / ٢٠٠٩م).

الأعمال، لضمان السلامة الصحية للحجاج، لأن كل شيء ينعكس على كل شيء في هذه المنظومة الفريدة من نوعها. حيث تعمل الوزارات والمؤسسات التالية جنبا إلى جنب ويدا بيد لبلوغ تلك الغاية الشريفة. وزارة الحج، وزارة الصحة، وزارة الداخلية، وزارة الخارجية، وزارة الدفاع إلى جانب مؤسسات أرباب الطوائف والكشافة والهلال الأحمر ... وسنتناول في هذا العنصر من البحث أمثلة عن جهود بعض الأجهزة الحكومية والجمعيات الأهلية في ضمان السلامة الصحية للحجاج، وذلك لصعوبة حصر جهود كل المؤسسات (حكومية وأهلية)، لأن ذلك يتطلب بحوثا مستقلة بذاتها، وقد اخترنا لأجل هذا الغرض الحديث عن جهود وزارة الصحة، وجهاز الحرس الوطني، كأمثلة عن أجهزة حكومية بالإضافة إلى جهود مؤسسات أرباب الطوائف، والكشافة والهلال الأحمر، كأمثلة عن المجتمع المدني.

أ – جهود وزارة الصحة: ونقصد بالتوعية الصحية عملية نشر المعرفة الصحيحة حول المواضيع الصحية ليتسنى للمتلقي تجنب الضرر، أو تجنب الكارثة التي قد تحدث قبل وقوعها [١]. وتتركز جهود وزارة الصحة السعودية في هذا الجانب على وضع خطة تتضمن الاحتياطات الصحية والمواد التوعوية التي يجب على معتزمي حج بيت الله الحرام أن يلتزموا بها منذ وقت مبكر، ويتم توزيعها على سفارات وممثليات وقنصليات المملكة في أنحاء العالم، ثم تسلم هذه المواد للحجاج عند مراجعتهم للقنصليات والسفارات السعودية في بلدانهم للحصول على التأشيرة، وهناك مواد توعوية أخرى توزع على الحجاج في منافذ الدخول إلى المملكة [٢]. بالإضافة إلى هذا تعتمد الوزارة على وسائل الإعلام في بث ونشر المعلومات الصحيحة عن الأمراض وكيفية الوقاية منها خاصة الأمراض المعدية، فعلى سبيل المثال نجد البرنامج التلفزيوني الصباحي الذي

---

[١] مساعد منشط اللحياني تجربة الدفاع المدني السعودي في توعية الحاج – بحث مقدم إلى الملتقى العلمي الثاني لأبحاث الحج، عن موقع: www.gov.sa.٩٩٨.com (٢ / ٨ / ٢٠٠٩).

[٢] استكمال الاستعدادات الصحية للحجاج عن موقع www.alwatan.alriady.net/nens (١٣ / ٧ / ٢٠٠٩م).

يقدم على القناة السعودية الأولى والذي يتمتع بشعبية كبيرة لدى عموم المشاهدين، يستضيف مجموعة من الأخصائيين والأطباء للحديث عن الخدمات الصحية التي توفرها المملكة للحجاج وعن برنامج "صحة ضيوف الرحمن" الذي يغطي رحلة الحج والمواضيع الصحية المتعلقة بها [١].

الجانب الوقائي: نقصد بالطب الوقائي، العلم الذي يختص بالوقاية من الأمراض، ويهدف إلى منع انتشارها ومن وسائله التلقيح والتربية الصحية [٢]، إن وجود مخاوف من احتمال انتشار بعض الفيروسات أو انتقال عدوى بعض الأمراض والأوبئة، من خلال الحجاج القادمين من بعض الدول التي تنتشر بها مثل هذه الفيروسات والأوبئة، هو الذي يدفع دائما بالوكالة المساعدة للطب الوقائي بوزارة الصحة إلى وضع الاشتراطات الصحية والإجراءات الاحترازية، مع التشديد في مراقبة التقيد بها، ومتابعة ذلك في منافذ القدوم على المملكة ومع سفارات المملكة والبعثات الطبية المصاحبة للحجاج، حيث تتواصل فرق الطب الوقائي مع تلك البعثات لجمع المعلومات ومتابعة الحجاج من الناحية الوبائية، وتعمل فرق الطب الوقائي بشكل ميداني متواصل طيلة موسم الحج، حيث تخرج إلى المنافذ البرية والبحرية والجوية لمتابعة تنفيذ الاشتراطات الصحية. كما تتعاون الوكالة المساعدة للطب الوقائي وتتواصل مع منظمة الصحة العالمية بمقرها في جنيف بشكل يومي، ونتيجة لهذا التواصل يتم تطعيم آلاف الحجاج في الدول التي تنتمي إلى مناطق عالية الوباء. وتنتشر فرق الاستقصاء الوبائي على مستوى المشاعر المقدسة، وتقوم بمتابعة ورصد أوضاع الحجاج بدخول خيامهم

---

[١] الإعلام الصحي يمد حجاج بيت الله الحرام بنصائح يومية: عن موقع وزارة الصحة (٩ / ١١ / ٢٠٠٩) www.moh.gov.sa.haj ((٢٢ / ٨ / ٢٠٠٩م).

[٢] مجلس أكاديمي برئاسة د. حسن مرضي حسن: موسوعة أكسفورد العربية، دار الفكر، بيروت، ط ٠١، ١٩٩٩، ص ٤٣.

وإعطائهم العلاجات أو التحصينات الضرورية [١]. ويذكر الدكتور ياسر بن سعيد الغامدي أن خطة البرنامج الوقائي تنفذ على ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: قبل موسم الحج: وتقوم على المراقبة الوبائية المستمرة للأمراض على جميع الأصعدة الدولية والإقليمية والمحلية ومعرفة احتمالات الأمراض التي يمكن أن تحدث منها الأوبئة، وبناء عليه يتم تحديد أي أمراض أخرى تستجد أهميتها، وإعداد الدليل الوقائي لموسم الحج، وتحديث الاشتراطات الصحية وموجهات العمل، وتعميمها على جميع الجهات ذات العلاقة للقيام بتنفيذها.

المرحلة الثانية: خلال موسم الحج: وتقوم على المراقبة الصحية لجميع الحجاج القادمين إلى المملكة عند المنافذ البرية والبحرية والجوية، وتطبيق قواعد الحجر الصحي على وسائل النقل المختلفة والحجاج القادمين، والمواد الغذائية المستوردة.

المرحلة الثالثة: بعد انتهاء موسم الحج: ويتم خلال هذه المرحلة مراقبة الوضع الصحي للحجاج أثناء إقامتهم وحتى مغادرتهم عبر المنافذ المختلفة، واستمرار متابعة الموقف الوبائي للأمراض ذات الأهمية بمناطق الحج ومتابعة الإجراءات الوقائية المتخذة [٢].

الجانب العلاجي: لا تقتصر عناية وزارة الصحة بالحجاج على الجانب الوقائي والتوعية الصحية فقط، بل هناك جانب علاجية للحجاج، حيث يأتي أشخاص في الموسم يعاونون من أمراض معينة، قد تكون مزمنة وكبار في السن ولديهم مشاكل في القلب قد تستدعي في بعض الحالات تركيب أجهزة حساسة لهم تفوق تكلفة الواحد منها ١٥٠ ألف ريال وتقدم لهم بالمجان [٣]. إن وجود مثل هذه الحالات المرضية في

---

[١] المملكة تنجح في تحقيق موسم حج جديد هذا العام، موقع سابق.

[٢] مي عبد الله الشايع: خطة وقائية مبكرة قبل موسم الحج موقع: www.alriyadh.com (١٤ / ١٢ / ٢٠٠٧م) (٢٥ / ٨ / ٢٠٠٩م).

[٣] استكمال الاستعدادات الصحية للحجاج، موقع سابق.

مواسم الحج والعمرة يجعل توفير وتطوير المنشآت الاستشفائية والمرافق الصحية أمرا ملحا وضروريا.

ب – جهود جهاز الحرس الوطني: مع بداية موسم الحج من كل عام تقوم رئاسة الحرس الوطني – وبعد تخطيط شامل وتنسيق كامل بين اللجان المختصة – بإصدار تعليماتها إلى وكالة الحرس الوطني بالمنطقة الغربية، لتبدأ مرحلة الإعداد والتحضير لاستقبال ضيوف الرحمن الوافدين إلى المملكة من كل فج عميق، فضلا عن الإعداد والتحضير لمخيمات الحرس الوطني بالمشاعر المقدسة، لاستضافة ضيوف الحرس الوطني من حجاج الخارج، ومنسوبي الحرس الوطني من حجاج الداخل. وتأتي مشاركة الحرس الوطني في خدمة ضيوف الرحمن من خلال مجالات عديدة وهي: الخدمات الأمنية، والخدمات الإعلامية، والخدمات الدعوية، والخدمات الصحية، وهذا المجال الأخير هو ما يهمنا في هذا المحور من البحث، نظرا لما يتمتع به قطاع الحرس الوطني من إمكانات طبية متقدمة وكفاءة بشرية متميزة فإنه يعد من القطاعات الرئيسة التي تعتمد عليها الدولة فيما تقدمه من خدمات طبية مجانية وقائية وعلاجية لحجاج بيت الله الحرام، وتقدم الشؤون الصحية بالحرس الوطني خدماتها للحجاج، من خلال عدة مراكز منتشرة في المشاعر المقدسة منها: مستشفى منى الميداني، مستشفى الطوارئ في منى وعرفات ومزدلفة، حيث ترافق المستشفيات الميدانية المتنقلة التابعة للحرس الوطني الحجاج في عرفات، ثم تنتقل معهم إلى مزدلفة، لتقدم لهم خدماتها الفورية والمجانية. وتحرص الشؤون الصحية بالحرس الوطني على التعاون والتنسيق مع الجهات الصحية الحكومية الأخرى المشاركة في خدمة الحجاج مثل وزارة الصحة، وزارة الداخلية، وزارة الدفاع .. ويبرز هذا التعاون في عدة صور منها:

- المشاركة في برناج الإخلاء الطبي بالمشاعر المقدسة.
- التنسيق مع الجهات السابقة بشأن توفير الأدوية والمستلزمات الطبية، واستقبال الحالات الطارئة التي تحتاج إلى التنويم.

- التنسيق المستمر مع الدفاع المدني، لنقل جميع الحالات التي تتطلب التدخل السريع حيث يتم نقل المرضى بالطيران العمودي إلى مستشفى الملك خالد للحرس الوطني بجدة.
- التنسيق مع إدارة أنظمة المعلومات والمعلوماتية بمدينة الملك عبد العزيز الطبية بجدة، بشأن استخدام النظام الإحصائي الخاص بوزارة الصحة وتطبيقه على الحجاج، بهدف الوصول إلى تقارير طبية دقيقة مبنية على المعلومات والبيانات الخاصة بالحالات المرضية والخدمات المقدمة لها، لرفعها إلى الجهات الحكومية المختصة.
- التنسيق مع الإدارة السابقة بشأن استخدام تقنية الاتصال الطبي المرئي حيث تم ربط مستشفى منى الميداني بمستشفى الملك خالد للحرس الوطني بجدة، وذلك للاستفادة مما تقدمه هذه التقنية من مميزات في مجال الاستشارات والخدمات الطبية المتقدمة، كما تم توفير خطوط رقمية مباشرة لتسجيل المعلومات الطبية بين مستشفى منى ومستشفى الملك خالد [١].

ج – جهود مؤسسات أرباب الطوائف: مؤسسات أرباب الطوائف هي عبارة عن هيئة أو مؤسسة أهلية تعمل ضمن مجموعة مؤسسات المجتمع المدني [٢]. ويمتد تاريخها منذ القدم، وقد كان سكان مكة المكرمة في فترة من الزمان هم من يقومون بمهنة الطوافة، وهي اليوم تضم في صفوفها مختلف شرائح المجتمع السعودي، إذ نجد فيها الطبيب والمهندس والأستاذ الجامعي وغيرهم .. وتضم الهيئة التنسيقية لمؤسسات أرباب الطوائف كلا من المطوفين، والأدلاء، والوكلاء، والزمازمة، وقد ظلت هذه الهيئة تعمل أكثر من ٢٥ عاما في خدمة حجاج بيت الله الحرام بصفة تجريبية، إلى أن أقر

---

[١] هيئة التحرير: إسهامات الحرس الوطني في خدمة حجاج بيت الله الحرام، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، ع ٩٥، (١ / ١٢ / ٢٠٠٨م) عن موقع www.kkmoq.gov.sa (٢ / ١٠ / ٢٠٠٩م).

[٢] اكتمال الاستعدادات لموسم الحج موقع www.arabnet٥.com (٣ / ٨ / ٢٠٠٩م).

مجلس الوزراء في العام ١٤٣٠ هـ تثبيتها وألغى عنها صفة التجريبية، لتكون من مؤسسات المجتمع المدني [1]. وتحرص مؤسسات أرباب الطوائف على بذل الجهود الحثيثة للارتقاء بمستوى الخدمات المقدمة لوفود الرحمن، وتتنوع هذه الخدمات بدءا من وصول الحجاج إلى منافذ الدخول بالمملكة، إلى غاية مغادرتهم لها بعد تأدية نسكهم بكل راحة واطمئنان، ومن بين الخدمات التي تضطلع بها هذه المؤسسات خدمة متابعة الرعاية الصحية التي تهدف إلى الاهتمام بشؤون الحجاج الصحية، وتقديم الرعاية لهم من خلال المستشفيات الحكومية منذ قدومهم وحتى مغادرتهم إلى بلادهم، ومتابعة حالاتهم المرضية، بالإضافة إلى ذلك العناية بشؤون الموتى من الحجاج. وتركز خدمة المتابعة الصحية على ما يأتي:

- المتابعة والإشراف المباشر على الحجاج المرضى، والمنومين في المستشفيات.
- المساعدة في نقل الحجاج باستلامهم من المستشفيات، بعد صدور التوصية الطبية بالسماح لهم بالخروج من المستشفيات، وإعادتهم إلى مقار سكنهم بالمدينة المنورة أو نقلهم إلى مكة المكرمة لتأديتهم فريضة الحج، أو مغادرتهم إلى بلدانهم.
- توفير العاملين من ذوي الخبرة، لمباشرة أعمال الخدمات العامة والرعاية الصحية ومتابعة أحوال الحجاج.
- تعيين مندوبين للمؤسسة بالمستشفيات لمتابعة أحوال المرضى من الحجاج.
- القيام بجولات يومية على المستشفيات، لمتابعة حالات المرضى المنومين واستكمال الإجراءات اللازمة لهم [2].

---

[1] إبراهيم الراشد الحديثي: بناية المسجد الحرام، مجلة التضامن الإسلامي، وزارة الحج، مكة المكرمة، س ٤٨، ربيع الأول ١٤١٤ هـ ص ٧.

[2] جازي الشريف: المؤسسة الأهلية للأدلاء، كوادر مؤهلة وخدمات راقية، عن موقع www.albiladdaily.com (١٢ / ٨ / ٢٠٠٩م).

د – الكشافة والهلال الأحمر: تساهم الكشافة السعودية في دعم جهود الأجهزة الحكومية والأهلية لخدمة حجاج بيت الله الحرام، في أكثر من مجال حيث تتواجد معسكرات الخدمة العامة للحج، التابعة لجمعية الكشافة العربية السعودية أيام الموسم بالمشاعر المقدسة، للمساهمة في دعم مركز عمليات الطوارئ التابع لقوات الدفاع المدني، كما تشترك الكشافة مع الهلال الأحمر السعودي في أعمال إسعاف المرضى ونقلهم إلى المستشفيات داخل المشاعر المقدسة ومكة المكرمة ومنع التجمعات أثناء إسعاف المرضى، وتنظيم دخول سيارات الإسعاف أمام بوابات الطوارئ، وإرشاد المرضى في العيادات، والعمل مع لجنة استقبال ونقل المرضى المنومين بالمستشفيات لإتمام حجهم في مساء يوم عرفات [١]. وبالإضافة إلى جهود الكشافة السعودية في خدمة الحجاج، يبرز الهلال الأحمر السعودي على أنه أهم الجمعيات الأهلية التي تساهم في خدمة ضيوف الرحمن في مواسم الحج والعمرة، حيث يعد الهلال الأحمر كل عام خطة متكاملة لتقديم الخدمات الإسعافية والعلاجية لحجاج بيت الله الحرام، وذلك بتجنيد كل الطاقات البشرية والآلية، من خلال توفير مراكز للإسعافات وتوسيع انتشارها في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، والمدينة المنورة وفي جميع منافذ المملكة البرية والبحرية والجوية، وعلى الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، إضافة إلى توفير الفرق الإسعافية وسيارات الإسعاف المجهزة وتوفير المستلزمات والتجهيزات الطبية الضرورية لمواجهة الحالات الإسعافية، كل ذلك يتم على أيدي موظفين مدربين بشكل جيد، إضافة إلى طلاب المعاهد الصحية الأهلية، ومشاركة طلاب الكشافة [٢].

❖❖❖

[١] د. م، د، ع. صحيفة اليوم الإلكتروني، صفحة تحقيقات وتقارير، س ٤٠، ع ١٢٢٦، (١٢ / ١٢ / ١٤٢٧هـ) الموقع: www.alyawm.com (١٠ / ٨ / ٢٠٠٩).

[٢] د، م، الهلال الأحمر يوفر ١١٨ مركزا إسعافيا، و ٣٣١ سيارة للحج عن موقع: www.aawsat.com (١٥ / ٩ / ٢٠٠٩م).

الخطأ في ضبط المفاهيم الملتبسة

الجهاد والقتال

المفهوم والآفاق في الواقع المعاصر

(٢-٢)

الدكتور عصام الدين بن أحمد البشير
رئيس مجمع الفقه الإسلامي بالسودان

إشكاليات على طريق الفهم الصحيح للجهاد:

آية السيف:

ذكر بعض أهل العلم أن آية السيف نسخت كل الآيات السابقة، وجعلت السيف هو الفيصل بين المسلمين وغيرهم، ويجاب عن هذا بأن آية السيف لم يتفق عليها، فمن الناس من قال هي آية {وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة} (التوبة:٣٦)، وهذه ليس فيها نسخ، بل فيها دعوة للمعاملة بالمثل، وقال آخرون هي آية {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم} (التوبة:٥)، وهذه الآية نزلت في مشركي العرب الذين نكثوا العهود، ولا دليل فيها على قتال من وفّى بعهده، فقد سبق هذه الآية قوله: {إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم} (التوبة:٤) وبعدها قوله: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه} (التوبة:٦)، وقوله: {فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم} (التوبة:٧)، ومنهم من قال: آية السيف {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} (التوبة:٢٩)، فهؤلاء وقفوا ضد الدعوة، وصدوا الدعاة، وتآمروا على المسلمين، فحق قتالهم، وليس فيها دليل على قتال من لم يقاتل المسلمين أو يصد عن سبيل الله من الكفار.

حديث: بعثت بالسيف [١]

أما حديث: "بعثت بالسيف – بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده"، فإنه ضعيف سندا ومتنا [٢]، أما من ناحية السند: فمداره على عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد اختلف الأئمة في توثيقه وتجريحه، والمجرحون له أكثر، أمثال الإمام أحمد الذي قال: أحاديثه مناكير، والإمام يحيى بن معين الذي ضعفه، والإمام النسائي وغيرهم.

وحتى الذين وثقوه: لم يوثقوه بإطلاق، بل منهم من قال: ليس به بأس.

وإذا غضضنا الطرف عن السند، ونظرنا في متن الحديث ومضمونه، وجدناه على غير ما ألفنا في صريح القرآن الذي لم يقرر في آية واحدة من آياته أن الله بعث محمدا بالسيف، بل أرسله بالهدى ودين الحق، وبالبينات والشفاء والرحمة للعالمين وللمؤمنين، وهذا ثابت بوضوح في القرآن المكي، وفي القرآن المدني، على سواء.

يقول تعالى في سورة مكية: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (الأنبياء:١٠٧).

ولو بعث الرسول بالسيف: لظهر ذلك طوال ثلاثة عشر عاما قضاها في مكة، وأصحابه يأتون إليه بين مضروب ومشجوج ومعتدى عليه، يستأذنونه في أن يدافعوا عن أنفسهم بالسلاح، فيقول لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة، حتى هاجروا إلى المدينة، فأذن الله لهم في أن يدافعوا عن أنفسهم وحرماتهم ودعوتهم.

والخلاصة: أن هذا الحديث سواء نظرنا إلى إسناده أم نظرنا إلى متنه، فهو مرجوح في ضوء موازين العلم وقواعده الضابطة.

قوله تعالى: {تقاتلونهم أو يسلمون}، وحديث: "أمرت أن أقاتل الناس".

قول الله تعالى: {قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما} (الفتح:١٦).

---

[١] أحمد بلفظه ٢ / ٩٢، وعلق شعيب الأرناؤوط بقوله: إسناده ضعيف على نكارة في بعض ألفاظه.

[٢] انظر فتوى الشيخ القرضاوي في الرابط: http://www.gam٢aonline.com/art_read_n.asp?id=٢١٢٠

يسترسل بعض الطاعنين في الإسلام بأن الجهاد فرض للإكراه على الإسلام بالاستشهاد بهذه الآية، ويرونها تؤصل للقهر الفكري، وتنفي حرية المعتقد، وتنسف حق الرأي، وأن منطوقها يجعل المخالف بين خيارين، إما الإسلام الذي قد يرفضه قلبه، وإما السيف الذي يسلبه حياته.

ومع هذه الآية – زعموا – يتضامن حديث ابن عمر رضي الله عنه الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله" [(١)].

فظاهر النصين السابقين أن الإكراه هو وسيلة الإسلام في دعوته، وطريقته في رسالته، وأن علماء المسلمين يحاولون نفي هذه الحقيقة دون جدوى، بل يزعمون غير ذلك من السماحة في الدعوة، والحرية في الفكر، والسلمية في الوسائل.

ولا شك أن هذا الادعاء المزعوم لمفهوم الآية والحديث ادعاء خاطئ، بُني على نظرة عاجلة للنصين الكريمين، أما الآية فقد أمرت بالمقاتلة، لا بالقتل، والمقاتلة مفاعلة تقع من طرفين لا من طرف واحد، فإذا تقرر في كثير من الآيات اعتماد السلمية في الدعوة كما في قوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين} (النحل:١٢٥)، وقوله تعالى: {فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر} (الغاشية:٢١ – ٢٢} ، وقوله تعالى: {فإنما عليك البالغ وعلينا الحساب} (الرعد:٤٠)، وقوله تعالى: {لا إكراه في الدين} (البقرة:٢٥٦)، فمنطوق الآية يدل على صد من يعيق الدعوة، ومدافعة من يتعرض لها ولو بقتاله إن قاتل، حيث ذكر فيها المقاتلة التي تكون مع المقاتلين، وليس القتل الذي قد يقع على المسالمين، فلم يقل سبحانه: {تقتلونهم أو يسلمون} فيفهم إجبار غير المسلم على الإسلام.

---

(١) متفق عليه.

والناظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يرى أنه لم يقتل أحدا رغب عن الإسلام، ولكنه قاتل من حال بين الناس وبين الدخول في الإسلام، وحال بين المسلمين وإبلاغ الدعوة، ولسان الحال المتمثل في هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة أبلغ بيانا، وأصدق مفسر للآية.

وبذات الصياغة والواردة في الآية جاء الحديث الشريف حاملا الوعيد بمقاتلة أعداء الرسالة الذين يصادرون إرادة الناس، ويقهرونهم على الكفر، ويصدونهم عن سماع الهدى، وبذات اللفظ (أقاتل) وليس بلفظ: (أقتل).

وفي الحديث إشارة إلى أن لناس متى خُلّي بينهم وبين الإسلام دون إكراه، فسيختارون الهداية، لأنه دين الفطرة والحجة، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله".

فالقتال يزيل المانع من بلاغ الرسالة، ومتى أزيل المانع اتضحت الحجة بالبرهان لا بالسنان، وعندها يسترشد الناس ويشهدوا ألا إله إلا الله، وبهذا تُعصم الدماء، ولفظ (حتى) الوارد في الحديث، يبين غاية أمر قتال الصادين عن دين الله، وهو زوال صدهم الذي ينتج عنه معرفة الناس الحق واتباعه وتنعمهم بما يترتب على شهادة التوحيد من أمن وصون للدماء.

حديث: "من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو" [١]:

إذا كان المراد مجال التفكير الداخلي للإنسان، فإنه لابد لكل مسلم غيور أن يداعب خياله ذلك الحلم العظيم الذي يلهب المشاعر ويؤججه، وهو أن يلقى ربه شهيدا مع النبيين والصديقين، غير أن الحديث لا يدين كل مسلم لا يقاتل في سبيل الله، الأمر الذي قد تشتم منه رائحة التحريض التي يحول البعض اصطيادها من السياق، لكنه يدين من لم يراوده خاطر الغزو حتى وإن لم يقاتل، فالأول يتهم إيمانه لأنه تقاعس عن النداء، والثاني يتهم في إيمانه، لأنه بإسقاطه الأمر من وعيه كلية يبرهن

[١] صحيح مسلم: ١٩١٠.

على أنه غير مستعد للتضحية دفاعا عن عقيدته، وذلك لا يعد تحريضا ولا تهييجا، ولكنه نوع من التربية السامية التي تغرس في أعماق المسلم قيم الفداء والتضحية وبذل النفس والنفيس دفاعا عن دينه.

حديث: "الجنة تحت ظلال السيوف" [1]:

المقصود بالحديث هنا الحض على الآخرة وليس التحريض، يقول العسقلاني في شرحه: "أفاد الحض على الجهاد والإخبار بالثواب عليه والحض على مقاربة العدو واستعمال السيوف والاجتماع حين الزحف، حتى تصير السيوف تظلل المقاتلين"، كما أن الحديث لم يقل إن السيف طريق وحيد للجنة، ولكنه أفاد الحض على الآخرة، ثم إن الحديث قيل في مناسبة التعبئة لمعركة – لعلها الأحزاب – ومثله حديث: "الجنة تحت أقدام الأمهات" في إطار الحض على برّهن، وقد علم أن أبواب الجنة ثمانية، ومنها باب الريان للصائمين، للدلالة سعة رحمة الله تعالى، وتنوع أبواب الطاعات والصالحات.

غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم:

فغزواته صلى الله عليه وسلم وقائع تاريخية لا نسعى لإنكارها، غير أنه يجب فهمها في سياقها الذي حدثت فيه، فالمعارك التي وقعت داخل الجزيرة العربية لم يشعل نارها المسلمون، بل كان مشركو مكة هم أول من أشعلها وافتعل أزمتها، فكانوا المتسببين فيها عمليا من خلال الضغط على المستضعفين في مكة بعد أن خلالهم الجو، فتوالى التنكيل بهم، عندئذ بدأ الضعفاء من مسلمي مكة يستغيثون في صرخات عالية، فنزل القرآن {وما لكم لا تقاتلون في سبيل اله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها} (النساء: ٧٥).

أما المعارك التي كانت خارج الجزيرة العربية، فإنها كانت لحماية الدعوة ومنعة المسلمين من تغلب الظالمين، لا لأجل العدوان، فالروم كانوا يعتدون على حدود البلاد العربية التي دخلت في حوزة الإسلام ويؤذون من يظفرون به من المسلمين، وكان الفرس أشد إيذاء للمؤمنين منهم، فغزوة تبوك سببها أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي ١٧٧١٠، والمستدرك ٢٣٨٨، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

بالشام، وزحفوا لملاقاة المسلمين، هذا من ناحية الروم. أما من ناحية الفرس، فقد تمنى سيدنا عمر أن لو بينه وبينهم واديا من نار يحجز بين الفريقين، وكان كلما عزم على الوقوف عند حد معين من الفتوحات اضطرته مؤامرات فارس على استئناف القتال.

وهكذا فإن المتابع لمعارك المسلمين يجد أنهم اضطروا إليها بحكم الضرورات الحربية، ومن أظهر الأدلة على ذلك أنه مع توغل المسلمين شرقا وغربا في فتوحاتهم، فإنهم لم يقتربوا من الحبشة، وذلك لأن الحبشة كانت مسالمة للمسلمين، ولم تشكل عليهم خطرا، وفي هذا برهان قاطع على أن المسلمين لم يحاربوا إلا الطغيان والعدوان الذي كان يعترض مسيرتهم أو يهدد دعوتهم بالخطر.

الجهاد عبادة منضبطة:

مما يميز هذا الدين: ضبطه للعبادات وتقعيده لصحة المعاملات، فليس فيه عبادة إلا ولها شروط وجوب وصحة وأركان ونواقض وغير ذلك مما تزخر به كتب الفقه، والجهاد (القتال) ليس استثناء من منظومة العبادات في هذا.

بل إن القتال في سبيل الله أولى العبادات بالقيود، وذلك لأنه خوض في الدماء، وتعرّض للنفس البشرية التي هي أكرم ما خلق الله تعالى، وقد تواترت الأحاديث في التحذير من سفك الدماء والتأمين على صيانتها.

وليس الشاهد في هذا المقام بإيراد كل شروط القتال التي أسهب العلماء في بيانها بكتب الفقه، وإنما المراد إبراز بعض الضوابط التي يغفل أو يتغافل عنها بعض الرافعين لنداء الجهاد في عصرنا، ومن أهمها ما يلي:

أولا: الجهاد قرار الإمام:

فقتال الأعداء أمر تعود آثاره على الأمة جميعها، ولا يقتصر رد فعل العدو على المجاهد في شخصه، ولما كان أثره على الجميع فلا يصح أن يقرره الأفراد، لذا فيجب أن تتخذه الأمة من خلال الإمام الذي عهدت إليه تدبير أمرها.

والناظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، يرى كيف أن الأوامر بالجهاد كانت تصدر من قيادة الدولة الإسلامية، فلا تخرج سرية إلا إذا عقد

لها الإمام لواء الجهاد، ولا تتحرك كتيبة إلا بإذن من القائد، بل إن الأمر أبلغ من ذلك، فبعد أن يأذن القائد الأعلى بالقتال: على المسلمين طاعته في التكتيكات الحربية، والانصياع لقراراته العسكرية، فضلا عن الافتئات عليه وعقد الألوية دون إذنه.

ثانيا: مراعاة العهود:

فلا يصح قتل المعاهدين والمستأمنين ومن على شاكلتهم، فالجهاد شرع لرد العدوان، أو إزالة الموانع التي تعترض طريق نشر الإسلام، وليس استحلالا للدماء ولا عشقا لسفكها، قال صلى الله عليه وسلم: "من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما" [١]، وقال: "من قتل معاهدا له ذمة اله وذمة رسوله لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاما" [٢].

ثالثا: النظر في المآلات:

القتال ليس غاية في نفسه، ولامطلوبا لذاته، بل هو وسيلة لتحقيق العدل، ودحر الظلم، ونشر الخير، ولا أدل على كونه وسيلة من الاستغناء عنه متى لاحت بارقة أمل في السلم، قال تعالى: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم} (الأنفال:٦١)، وقوله صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية" [٣]، فلو كان غاية لكان أمنية، ولكنه وسيلة لتحقيق مقاصد الدين العظيمة، وهذا لا يقلل من فضله ولا ينقص من مكانته متى ما رُوعيت ضوابطه والتُزمت شروطه.

ومن المعلوم عقلا ونقلا أن الوسيلة متى عادت على الغاية بالنقض أو النقص لا يصح اعتمادها، ولذا رجع النبي صلى الله عليه وسلم عن الطائف بعد حصارها لما لم ير فيه جدوى، فالجهاد ليس بحثا يائسا عن الشهادة، بل غايته النصر والتمكين للدين

---

[١] أخرجه البخاري.

[٢] أخرجه ابن ماجه وصححه الألباني.

[٣] متفق عليه.

والقيم، قال تعالى: {وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} (الصف:١٣).

رابعا: قيد الأخلاق:

القتال في سبيل الله وسيلة لحماية الدين، والدين كله خلق، قال صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" [١]، ولا يصح أن تنفي الوسيلة الغاية، ولذا جاء الهدي الإسلامي الكريم ليهذب المسلم في ميدان الجهاد بما يلي:

قتال المقاتلين دون غيرهم:

قال تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} (البقرة:١٩٠)، وقال صلى الله عليه وسلم للمجاهدين: "انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة، ولا تغلوا وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين" [٢].

النهي عن الغدر والمثلة:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا" [٣].

إكرام الأسير:

قال الله تعالى: {ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا} (الإنسان:٨)، قال البيضاوي: (مسكينا ويتيما وأسيرا يعني أسراء الكفار، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: أحسن إليه) [٤].

والإسلام يعد الأسير من الفئات الضعيفة التي تعامل بالرفق والرحمة، حاله كحال اليتامى والمساكين، ثم هو في الأصل إنسان تراعى فيه الكرامة الإنسانية،

---

[١] أخرجه أحمد في المسند، ومالك في الموطأ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١ / ٤٤.

[٢] أخرجه أبوداود: ٢ / ٣٤٢ (٢٦١٦).

[٣] رواه أبوداود: ٢ / ٤٤، والترمذي: ٤ / ٢٢ (١٤٠٨).

[٤] تفسير البيضاوي: ١ / ١٤٧.

والله سبحانه وتعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم في شأن أسرى بدر فقال: {ياأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم} (الأنفال: ٧٠).

ولا يخفى ما في هذا الخطاب الموجه من الله تعالى بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الأسرى من الرفق واللين والاستمالة إلى الإسلام.

وقد نص القرآن في كثير من آياته على كيفية معاملة الأسير فقال: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم} (محمد :٤).

ولما أسر المسلمون ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي، أحسنوا إساره" ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله فقال: "اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه"، وأمر بلقحته أن يغدى عليه بها ويُراح ثم قال صلى الله عليه وسلم يوما: "أطلقوا ثمامة"، فلما أطلقوه خرج حتى أتى البقيع، فتطهر فأحسن طهوره، ثم أقبل فبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام [1] فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يكرم ثمامة حتى أسلم.

قال ابن القيم رحمه الله: (كان يمن على بعضهم ويقتل بعضهم ويفادي بعضهم بالمال وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة، ففادى أسارى بدر بمال وقال لو كان المطعم بن عدي حيا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له. وهبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلحون يريدون غرته، فأسرهم ثم من عليهم، وأسر ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، فربطه بسارية المسجد ثم أطلقه فأسلم).

---

[1] سيرة ابن هشام: ٦ / ٥١.

التقسيم الثلاثي الفقهي للعالم:

إن الأساس الذي بنيت عليه أحكام "جهاد الطلب" بمعناه القتالي، هو تقسيم المعمورة إلى دار كفر – تتقسم بدورها إلى دار حرب ودار عهد – ودار إسلام، وهذا التقسيم ينبغي إعادة النظر فيه، وفقا للمتغيرات الدولية الحديثة.

وحينما نقرأ كلمة "تقسيم"، فإننا لا نلتفت إلى ما وراء هذه العملية من القواعد والآليات العقلية والمنطقية الدقيقة التي اتبعها العلماء لضمان صحة تقسيماتهم المختلفة للأحكام والشروط والأركان ... إلخ، فالغاية من التقسيم – كالتعريف – أن يتوصل به إلى إدراك حقيقة الشيء، ومن ثم فقد جعلوا للتقسيم جهات أو حيثيات أو اعتبارات ينقسم المعنى بحسبها، وجعلوا لها شروطا إذا تخلفت كان التقسيم فاسدا، وقد توقعنا الغفلة عن هذه المعاني في التمسك بظاهر التقسيم الفقهي أو الأصولي لمعنى ما تواضع عليه الفقهاء قديما، دونما مراعاة لتغير الأسس والجهات الواقعية والتاريخية التي بُني عليها التقسيم.

فمثلا التقسيم الثلاثي للعالم إلى "دار إسلام" و "دار حرب" و "دار عهد"، كان رهنا بظروف تاريخية معينة، فجاء هذا التقسيم كتوصيف واقعي لهذه الحالة، وصار هذا التقسيم محل إجماع من الفقهاء بشكل عام، وإن اختلفوا في مناط التسمية، أي ما هو الوصف الذي لو تحقق صح إطلاق "دار الحرب" أو "دار الإسلام" على الدار صاحبة الوصف؟

فمنهم من اعتبر أن سيادة الأحكام الشرعية أو عدم سيادتها هي مناط التسمية، ومنهم من اعتبر أن مجرد الأمن والأمان والتمكن من إقامة الشعائر أو عكسه هو المصحح لتلك التسمية، ومنهم من اعتبر أن المتاخمة والمجاورة هي مناط الوصف، ومنهم من اعتبر بالغالب من حال أهل البلدة، فإن كان أكثر أهلها مسلمين صارت دار إسلام وبالعكس، لكنهم اتفقوا على هذه القسمة الثلاثية في الجملة.

وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا التقسيم – إضافة إلى أنه أمر فرضه الواقع العملي – عند الفقهاء، ما يمكن أن نجمله في النقاط التالية:

١- تنظيم شؤون المسلمين، نظرا لحاجتهم حكاما ومحكومين إلى توحيد جهودهم وتوجيه قواهم نحو عدو خارجي حفاظا على كيان الأمة الإسلامية، لاسيما في بدء تشكلها وتكونها.

٢- بيان ما يترتب على هذا التقسيم من ثبوت الولاية أو عدمها في تطبيق الأحكام الشرعية ضمن الحدود الجغرافية لدار الإسلام، وغيرها من الدور المقابلة لها.

٣- التأصيل الفقهي لواقع العلاقات التي كانت تسود بين المسلمين وغيرهم (كالروم والفُرس) وتبيين الأحكام الشرعية الناظمة لهذه العلاقات، وذلك كالأحكام المتعلقة بالسلم والحرب والمعاهدات، وغيرها من التفاصيل المعروفة في وقتنا الراهن بقانون العلاقات الدولية العامة.

٤- ما يترتب على عدم إيمان جميع سكان المعمورة بتعاليم الشريعة الإسلامية وأحكامها من عدم تطبيق أحكامها عليهم، لعدم دخولهم تحت سلطة ونفوذ دار الإسلام ، وهذا ما يظهر واضحا جليا في الاجتهاد الحنفي على وجه الخصوص، وهو ما أدى إلى اعتبار كثير من أحكام الشرعية إقليمية من حيث التطبيق والنفاذ، وبما يتناسب طردا وعكسا مع امتداد دار الإسلام الإقليمي، ولكن كل هذه المسوغات لا تقتضي حتمية المنظور الفقهي لجغرافيا العالم على النحو الذي رآه الفقهاء، لذا فهي لا تعدو أن تكون اعترافا واقعيا أفرزته الحالة الطبيعية لوجود دار إسلامية [1].

إن هذا الإجماع الفقهي – على التقسيم الثلاثي – لم يمنع فقيها أصوليا كابن تيمية من إحداث تقسيم آخر لم يسبق إليه وهو "الدار المركبة"، وذلك عندما سئل عن بلدة "ماردين" هل هي "دار حرب" أو "دار إسلام"، فأجاب رحمه الله: (وأما كونها "دار

---

[1] يراجع في هذا مقال الأستاذ ياسر لطفي العلي بعنوان: "جغرافيا العالم من منظور فقهي" منشور بموقع إسلام أون لاين تحت هذا الرابط: http://www.islamonline.net/arabic/contemporary/culture/٢٠٠٦/٠٩/٠٢b.shtml

حرب" أو "سِلم"، فهي "مركبة" فيها المعنيان، ليست بمنزلة دار السلم التي تجري عليها أحكام الإسلام، لكون جندها مسلمين، ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار، بل هي قسم ثالث يعامل المسلم فيها بما يستحقه، ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه [١].

فالأساس الذي قام عليه تقسيم الأقاليم إلى دار إسلام ودار كفر أو حرب، هو أساس اجتهادي لا نصي، حيث لم يرد بهذا التقسيم قرآن ولا سنة، إلا إشارات غير مباشرة وردت في بعض الأحاديث [٢].

لقد أدرك شيخ الإسلام ابن تيمية أن مسألة التقسيم هذه مسألة اصطلاحية لم يرد بها توقيف من الشارع الحكيم، ولهذا لم يتوقف – على تحفظه في مجال المحدثات – في القول بالدار المركبة، حينما اختلفت جهة التقسيم التي اعتبرها أسلافه، وإن لم يسبقه أحد إليه.

والأمر الآخر الذي ينبغي التنبه له: أن الفقهاء لم يعتبروا أن وصف الدار بالإسلام أو العكس وصف ذاتي لا ينفك عنها بحال، بل هو وصف طارئ خاضع لظروف وأحوال معينة، والذي ترتب على ذلك عند كثير من الفقهاء أن دار الكفر قد تنقلب دار إسلام وبالعكس.

ونحن لا نبحث هنا في الترجيح بين الاعتبارات أو الحيثيات المختلفة التي نظر إليها العلماء لكي نرجح حيثية على أخرى، بل نقول: إن هذه الاعتبارات نفسها يمكن تجاوزها بل واطّراحها – بحسب الواقع – والنظر إلى اعتبارات وحيثيات أخرى قد توصلنا إلى نتائج تناسب الأعراف الدولية الجديدة.

---

[١] مجموع الفتاوى ٢٨ / ٢٤.

[٢] أحكام المال الحرام، للدكتور عباس أحمد الباز، ص ١٩٥.

إن من شروط صحة التقسيم – كما نص عليها العلماء – أن يوجد التقابل والتوازي بين أفراد المقسم الواحد، فينتج ما يسمى بالقسمة الصحيحة الحاصرة، التي لا تحدث خللا ولا تداخلا ولا تنافرا ولا إرباكا [1].

ولا شك أن بقاء القول بتقسيم المعمورة إلى دار إسلام ودار كفر، قد أحدث إرباكا وخللا كبيرا على الصعيدين الداخلي والخارجي، واستحضار هذا الأمر يدع المجال واسعا للاجتهاد الفردي والجماعي لإعادة الاهتمام بدراسة التقسيم الإسلامي للأرض بما ينسجم والمعطيات الدولية المعاصرة، ليس بالضرورة من خلال طرح بديل أو تقسيم آخر بقدر ما يكون أكثر ملاءمة للواقع، ويكون مدخلا لإعادة بناء الرؤية الإسلامية للعالم وتقسيماته، والذي يمكن أن يتبلور هو الآخر من خلال مقاربات ومراجعات تتكامل بصورة تراكمية بناءة.

دار عهد ودعوة:

- تقسيم المعمورة إلى دار حرب ودار عهد ودار إسلام اجتهادي لا نصي.
- أن هذا التقسيم استقراء لواقع مضى زمانه.
- أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حكم بغير هذا التقسيم في حالة مختلفة عن حالة التقسيم المعهود.
- الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم يفرض تقسيما ثنائيا للمعمورة، وهو تقسيمها إلى دار إسلام ودار عهد ودعوة، فالعالم اليوم إما بلد إسلامي يعمره المسلمون وتظهر فيه شرائع الإسلام، وإما بلد تربطه بين بلدان المسلمين المواثيق الأممية والعهود الثنائية والعالمية.

[1] راجع: البحر المحيط للزركشي: ١ / ١٥٣.

- يضاف إلى دار العهد صفة دار الدعوة لأن العالم اليوم يزخر بالحوارات ويتبادل الآراء وهذا مما يشجع المسلمين على النشاط الدعوي في بلاد غيرهم.
- يستثنى من هذا التقسيم الثنائي (دار الإسلام ودار العهد والدعوة): إسرائيل، إذ لا تربطها بالمسلمين عهود ولا مواثيق.

الخاتمة

- الجهاد موقف يستغرق المسلم الحق، والقتال في سبيل الله أحد صوره وإن تربع على القمة بكل جدارة، إذ ليس فوق أن يبذل المرء روحه في سبيل الله مقام، كما أنه ليس ثمة تضحية أغلى من الشهادة، حتى عد هذا النوع من الجهاد: ذروة سنام الإسلام.
- كل قتال في سبيل الله جهاد، ولكن ليس كل جهاد في سبيل الله ينبغي أن يكون قتالا.
- الجهاد أنواع ودرجات، ولكن القتال نوع واحد، وصيغة واحدة، بأسباب موضوعية وأخلاقيات مرعية.
- الجهاد بمعناه الشامل فرض عين على كل مسلم يجب أن يمارسه في أية صورة يستطيعها.
- والقتال عند جمهور الفقهاء فرض كفاية إذا أداه بعض المسلمين سقط عن البعض الآخر، يتعين في حال النفير العام، وإذا دهم العدو أرضا، وإذا التحم الجيشان.

وأخيرا: الجهاد بهذا المعنى متصل وماض إلى يوم القيامة، والقتال عارض باستيفاء شروطه، وينتفي بانتفاء موجباته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❖❖❖

الإسلام دين الوسطية

(٢-٢)

الشيخ لطف الحق المرشدآبادي
المدرس بجامعة شمس الهدى السلفية، دلال فور، جاركند

ونجد كذلك الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كره الإسراف في الوضوء، كما في الحديث عن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: "اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، قال: أي بُني! سل الله الجنة وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء".[١]

وقرر الرسول صلى الله عليه وسلم الذين يزيدون في الوضوء على الثلاث، أو ينقصون منه مسيئين وظالمين، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: إن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله، كيف الطهور؟ فدعا بماء في إناء، فغسل كفيه ثلاثا، ثم غسل ذراعيه ثلاثا، ثم مسح برأسه، وأدخل إصبعيه السباحتين في أذنيه، ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه، وبالسباحتين باطن أذنيه، ثم غسل رجليه ثلاثا ثلاثا، ثم قال: هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا، أو نقص فقد أساء وظلم، أو ظلم وأساء".[٢]

وإذا نظرت في شريعة بني إسرائيل رأيت أن أحدهم إذا أصاب جلده بول قرضه بالمقاريض كما يتضح لك ذلك جليا من القصة التالية:

عن أبي وائل قال: كان أبو موسى يشدد في البول، ويبول في قارورة، ويقول: إن بني إسرائيل كان إذا أصاب جلد أحدهم بول قرضه بالمقاريض[٣] الحديث.

إن هذا الصنيع الشنيع من بني إسرائيل كان تشديدا وعنفا وتعمقا في دينهم دون شك، وأما ديننا دين الإسلام فتعليماته وتوجيهاته في ذلك بين الإفراط والتفريط، وهو

---

[١] رواه أبوداود ٤٥ باب الإسراف في الوضوء ٩٦ وصححه الألباني.

[٢] رواه أبوداود ٥ باب الوضوء ثلاثا ١٣٥ وقال الألباني: حسن صحيح دون قوله: "أو نقص" فإنه شاذ.

[٣] رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين.

الاقتصاد والاعتدال، فمن أصاب جلده بول أو نجاسة لا يقرض بالمقاريض في شريعتنا السمحة، بل يغسل بالماء، وذلك طهوره، وهذا هو من تعليمات دين الإسلام، دين الاقتصاد والتوسط، لا ترى في ديننا الحنيف تشديدا ولا تعمقا ولا عنفا ولا إفراطا ولا تفريطا في أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وأحكامه وأمثاله وعظاته.

ثبت في صحيح البخاري عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقال: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. [1]

انظر كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرشد هؤلاء الثلاثة المذكورين في القصة السالفة إلى اختيار منهاج الاقتصاد في العبادة، واجتناب التشديد والتعمق فيها، ورد على الرهبانية التي ليست من دين الإسلام ردا بليغا.

وكذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أرشد رجلا من أصحابه إلى اختيار طريق التوسط والاعتدال في الوصية حين قال: "أوصي بمالي كله" كما ثبت في صحيح مسلم عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: "عادني النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: أوصي بمالي كله، قال: لا، قلت: فالنصف؟ قال: لا، فقلت: أ بالثلث؟ قال: نعم، والثلث كثير. [2]

وإنما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستقر بذلك نظام المجتمع البشري باعتدال وانتظام في الأرض.

---

[1] كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.

[2] كتاب الوصية.

أخي في الله – وفقك الله – إذا تتبعت ديانة من الديانات المعاصرة في الأرض غير دين الإسلام رأيت في شرائعها ومناهجها وتعليماتها تشديدا وتعمقا كاليهود يمنعون مؤاكلة الحائض ومضاجعتها، ورأيت تهاونا كالمجوس يجوزون جماعها كما يقول الشاه ولي الله الدهلوي في كتابه: "وكانت الملل مختلفة فيما يفعل بالحائض، فمن متعمق كاليهود يمنع مؤاكلتها ومضاجعتها، ومن متهاون كالمجوس يجوّز الجماع وغيره، ولا يجد للحيض بالا، وكل ذلك إفراط وتفريط، فراعت الملة المصطفوية التوسط فقال: "اصنعوا كل شيء إلا النكاح"، وذلك لمعان منها: أن جماع الحائض لاسيما في فور حيضتها ضار اتفق الأطباء على ذلك، ومنها: أن مخالطة النجاسة خلق فاسد لمتجه الطبيعة السليمة، ويقرب من الشياطين، وفي مثل هذا الاستنجاء حاجة، وإما المقصود من ذلك إزالتها، وفي جماع الحائض الغمس في النجاسة وهو قوله تعالى: "قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض". [1]

هذا، وهناك كثير من نصوص الكتاب والسنة التي تحث على الاقتصاد في العبادة، وتنهى عن التعمق فيها، عدا ما ذكر أعلاه، تركتها مخافة الطول.

وجملة القول إن الإسلام دين الاقتصاد والاعتدال، جاء ليرشد البشر الحائر إلى اختيار طريق الاقتصاد والتوسط في العبادات والأعمال كلها، لينعم بالحياة الطيبة الكريمة والعيش الرضي .... ، ففي جميع أوامره ونواهيه، ووُعوده ووُعُده، وعظاته وتذكيراته، وإرشاداته، وتشريعاته وتنظيماته، وأحكامه وأمثاله ترى تعليم الاقتصاد والتوسط واضحا جليا، وهو ليس دين تشديد وتعمق وعنف وإكراه وقهر كديانات أخرى أباحت ذلك، ولا تجد في مناهج الأرض جمعاء تعليما وتوجيها مثل التعليم في دين الإسلام في باب الاقتصاد والاعتدال.



[1] حجة الله البالغة ٢ / ١٣٥، طبع الهند.

فقه السيرة

رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل
وما يستفاد منها من الدروس والعبر

نسيم أختر عبد المجيد السلفي

الحمد لله الذي أنزل الفرقان، ومن علينا بدين الإسلام، والصلاة والسلام على من بعثه إلى كافة الناس بشيرا ونذيرا برسالة الإسلام. أمابعد: فقد قال عز من قائل: {ومن يتبغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}. [1]

إن الله سبحانه وتعالى أنزل الإسلام كدستور جامع أخير ناسخ لما قبله من الدساتير، وعمم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للناس جميعا إلى يوم القيامة. ويعني ذلك أن هذا البلاغ المبين ينتهي إلى كل بيت مدر ووبر. فلما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، واستتب له الأمن والسلام وظهرت مدينة الرسول على خريطة العالم كإقليم إسلامي بدأ بإيصال رسالة الله الخالدة بما تيسر لديه من الإمكانيات إلى ملوك العالم.

فالمكاتيب والرسائل التي وجهها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء يبلغ عددها إلى خمسة عشر كتابا تحتوي كلها على مواد دعوية توافق المخاطب والموطن.

وفي هذا المقال الموجز نريد سرد رسالة منها وما يستنبط منها من فوائد، كي تتجلى قيمتها الدعوية، ويجني الدعاة منها ثمارا في سبيل دعوتهم. والأمر الذي يسترعي انتباهنا في هذا الصدد هو أنه عليه الصلاة والسلام أقبل على توجيه الدعوة إلى رؤساء الملل وقادتهم قبل الالتفات إلى الآخرين مما يكشف لنا حكمته أن القادة والملوك في

[1] آل عمران: ٨٥.

كل قوم يكونون متبوعين في الغالب، فإذا لبوا على هذه الدعوة وخضعوا لها أقبل الشعب كله إليها طائعا فإنه يقال "الناس على دين ملوكهم".

وإليكم نص الكتاب الذي أرسله الرسول العربي فداه أبي وأمي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم مع دحية الكلبي رضي الله عنه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم اليريسين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون". [1]

بعد الدراسة والتأمل في هذه الرسالة ظهرت لي بعض النكات التي أوردها فيما يلي:

الأولى: استخدام أسرع الإمكانيات المتوفرة في الزمان للقيام بمهمة الدعوة إلى الله. فنبينا عليه الصلاة والسلام اتخذ تلك الوسائل التي كانت متداولة في زمانه، وقضى واجبه. أما أهل زماننا فعندنا الإمكانيات الكثيرة والوفيرة لإيصال الدعوة إلى الجمهور بسهولة بفضل التقدم التكنولوجي، فلا يسوغ لنا أن نتهاون في مسئولية إبلاغ الدعوة بأي وسيلة مباحة.

الثانية: بدء الخطاب بالتسمية، فمن السنة أن نبدأ كتابة الرسالة ببسم الله الرحمن الرحيم، ولو كان المخاطب كافرا، ولا يجوز لأحد أن يختصر فيها بحيث يكتب "باسمه تعالى" أو "بعونه تعالى" أو يكتب العدد (٧٨٦) بدل التسمية كما يفعله بعض الناس. وهذا كله لا دليل عليه بل هو أمر محدث.

---

[1] صحيح البخاري: باب بدء الوحي، ح: ٧.

الثالثة: إظهار التواضع في المكتوب، حيث يذكر النبي صلى الله عليه وسلم عبديته قبل أن يذكر رسالته، فهو عبد الله قبل أن يكون رسول الله. وهذا الذي لا يلاحظه المبتدعة، فيغلون في شأن النبي صلى الله عليه وسلم.

الرابعة: من منهج كتابة الرسالة أن يكتب اسم المرسل والمرسل إليه في أول الكتاب.

الخامسة: يخاطب المرسل إليه بالألقاب والكلمات التي توافق مكانته الاجتماعية لتكون عونا على جلب انتباهه.

السادسة: تحية الإسلام "السلام عليكم" لا يلقى إلا إلى أهل القبلة، فإن ألقي إلى أهل الكتاب وغيرهم يشترط أن يكون مقرونا باتباع الهداية. كما قال عليه الصلاة والسلام: "والسلام على من اتبع الهدى".

السابعة: النقطة المركزية لدعوة الداعي يجب أن يكون هو الله سبحانه لا الشخصيات ولا الفرق والأحزاب. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "فإني أدعوك بدعاية الإسلام".

الثامنة: الإسلام رسالة التبشير والأمن والسلام، وقد جاء إلى المعمورة لينقذ البشرية من جور الأديان إلى عدله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها. ومما يظهر ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "أسلم تسلم".

التاسعة: إن عظماء القوم وسادتهم إن آمنوا بالله وأسلموا بعد ما تبين لهم الحق ينالون أجرين أجر إيمانهم وأجر من تبعهم في ذلك، ومن جحد منهم بالدعوة واستكبر فله وزره ووزر من لم يؤمن من رعيته كما هو القول السائر بين الناس "الناس على دين ملوكهم".

العاشرة: ينبغي تقديم الأسس التي تقرب المدعوين إلى الدعوة، وتجلب الانتباه إلى الأمور المشتركة بين الأمم، كما قال سبحانه وتعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم}.

الحادية عشرة: الأمم كلها متفقة في دعوة التوحيد كما قال عليه الصلاة والسلام "الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد" [١] يقول النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث "ودينهم واحد فالمراد به أصول التوحيد وأصل طاعة الله تعالى، وإن اختلفت صفتها". [٢]

الثانية عشرة: اتخاذ الأرباب من دون الله لا يعني العبادة فقط، بل يتضمن تحليل ما أحله غير الله من العلماء والأمراء وتحريم ما حرموه، فعن عدي بن حاتم أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرأ في سورة براءة {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} قال: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه" [٣] وفي ذلك عبرة لمن ينبذون النصوص الشرعية وراء ظهورهم ويقدمون عليها آراء الرجال. أعاذنا الله من هذا المسلك المشين، ووفقنا لخدمة دينه المتين.

❖❖❖

---

[١] صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء: ٣٤٤٣، وصحيح مسلم، الفضائل: ٢٣٦٥.

[٢] شرح النووي على صحيح مسلم.

[٣] الترمذي ٣٠٩٥ حسنه الألباني.

عبر ومواعظ

الشتـــــاء
آيات وأحكام

متابعة: سليمان الصالح

الشتاء دائما يذكر المؤمن بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير"، والزمهرير شدة البرد. وشدة البرد وشدة الحر آيات من آيات الله – سبحانه وتعالى – فلو ثبتت الدنيا على حال واحدة من البرد أو الحر، أو الليل أو النهار، ونحو ذلك لكان فيه غاية الملل للعباد، فمن حكمته أن نوع عليهم هذا وذاك، وليعبدوه في جميع الأحوال ليلا ونهارا، صيفا وشتاء، فإنه خلقهم سبحانه وتعالى لعبادته.

وحول هذا الموضوع تحدث فضيلة الشيخ محمد صالح المنجد.

آيات الله في الشتاء

وقد بدأ فضيلته بإشارات إلى ما في الشتاء من آيات وعظات، فذكر أن الشتاء تكثر فيه في العادة الأمطار، وترى فيه من الصواعق، والرعد، والبرق، ونحو ذلك من علاماته، وقال الله – سبحانه وتعالى - : {ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال} (الرعد:١٣)، وهكذا ترى المطر وترى البرق في هذا السحاب من آيات الله تعالى، وهذا البرد الذي يسقط وكذلك الثلج، وكان السلف إذا رأوا مثل هذه الآيات الكونية يتذكرون بها يوم القيامة، قال أحد الزهاد: ما رأيت الثلج يتساقط إلا تذكرت تطاير الصحف في يوم الحشر والنشر.

وهكذا جعل الله لنا سرابيل تقينا الحر وأخرى تقينا البرد فقال: {والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر

وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون} (النحل: ٨١) الوقاية من البرد.

وقال عمر – رضي الله تعالى عنه – موصيا رعيته: كان إذا حضر الشتاء تعاهدهم وقال: إن الشتاء قد حضر وهو عدو فتأهبوا له أهبته من الصوف، والخفاف، والجوارب، واتخذوا الصوف شعارا، ودثارا، فإن البرد عدو سريع دخوله، بعيد خروجه. وكاتب بذلك إلى أهل الشام لما فتحت في زمانه، وكان يخشى على من بها من الصحابة الذين كانوا يعيشون في هذه الجزيرة لم يكن لهم عهد بالبرد الطويل الذي كان بالشام، مما لم يعتادوا عليه من قبل، وهذا من تمام نصيحته، وحسن نظره، وشفقته على رعيته رضي الله عنه.

وينبه فضيلته إلى الوقاية من برد الشتاء، ولاسيما الأطفال وكبار السن، والوقاية خير من العلاج، وقال سبحانه ممتنا على عباده: {والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون} (النحل: ٥)، فجعل من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها سبحانه وتعالى وقاية لعباده، وخلق لهم ما في الأرض ليستفيدوا منه.

هذا الشتاء وهذا الثلج الذي لم يمنع الصحابة من الغزو في سبيل الله، بل قد حبس ابن عمر وغيره من الصحابة نحوا من ستة أشهر في آذربيجان، لقد بلغت فتوحاتهم هناك، وأقاموا محبوسين بالثلج حتى ذاب فاستطاعوا الرجوع.

غنيمة المؤمنين

ويؤكد الشيخ المنجد أن الشتاء غنيمة العابدين، وربيع المؤمنين، قال يحيى بن معاذ: الليل طويل فلا تقصره بمنامك، والإسلام نقي فلا تدنسه بآثامك.

وقال الحسن: نعم زمان المؤمن الشتاء ليله طويل يقومه، ونهاره قصير يصومه. وهذا معنى الحديث الذي ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: "ألا أدلكم على الغنيمة الباردة؟ قالوا: بلى، فيقول: الصيام في الشتاء"، ولقد رواه عامر بن مسعود مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الغنمية الباردة الصوم في الشتاء" رواه الترمذي وهو حديث صحيح، وتعبيره بالغنيمة الباردة لوجود الثواب بلا تعب كثير،

فالغنيمة الباردة التي تجيء من غير مباشرة كثيرة للقتال، ومن غير خطورة شديدة، فهي غنيمة باردة، هنيئة طيبة، وكذلك يكون في هذا الشتاء من صيام المؤمن غنيمة له بالأجر والثواب عند رب العالمين.

لقد كان بعض السلف – رحمهم الله – عندما يحضر أحدهم الموت يتأسف على أشياء، فما الأشياء التي تأسفوا عليها؟

بكى أحدهم عند الموت فقيل له: أتجزع من الموت؟ قال: ليس من الموت أجزع، ولكني أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء. يعني: يتأسف لفقدها، قال: ما أبكي جزعا من الموت، ولا حرصا على دنياكم، لا يبكي لفوات الدنيا، ليس لفوات الأموال، ولا القصور، وإنما يبكي، لأنه فاته أبواب الأجر، تنقطع الآن بموته، ومنها ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء.

بل إن بعضهم كان لا يستلذ بالعيش إلا لهذا، قال: لولا ثلاث: ظمأ الهواجر، وطول ليل الشتاء، ولذاذة التهجد بكتاب الله ما باليت أن أكون يعسوبا، فعنده أن ليل الشتاء بطوله يمكنه من الصلاة الطويلة بالليل، وكانت لذتهم في ذلك، وهذا ما يهنأ به عيشهم، ولولا ذلك ما بال الواحد منهم أن يكون مخلوقا آخر غير الإنسان.

بعض الأحكام المتعلقة بالشتاء

ويبين الشيخ المنجد أن في برد الشتاء مجاهدة النفس في إسباغ الوضوء على المكاره، فإن من المكاره ما يكون من الوضوء في البرد، والخروج إلى المساجد في البرد، والمكاره ما يتألم منه الجسد، ونحو ذلك من المشاق، وإسباغ الوضوء على المكاره عنوان للإيمان.

وقال صلى الله عليه وسلم: "تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء"، فعندما يكون الوضوء سابغا، معمما على أعضائه تماما، فإن حلية المؤمنين التي يلبسونها يوم القيامة على قدر هذا الإسباغ، وتسخين الماء لدفع البرد من الأسباب الشرعية، ولكن قد يفقده فيتحمل لله تعالى.

وفي هذا الشتاء إذا تعذر الوضوء، أو الغسل جاز التيمم، ومن أوجه التعذر ليس فقد الماء فقط، وإنما يوجد لكن لا يقدر على استعماله كما يحدث إذا لم يوجد ما

يسخن به الماء في البرد الشديد، ويخشى الضرر شبه المحقق على نفسه فله أن يتيمم حينئذ للحرج، ومثل هذا عندما يكون في الأماكن المكشوفة في شدة البرد لا يجد مكانا يسخن فيه الماء ويغتسل فيه، أما في البيوت فإن تسخين الماء متيسر في الغالب فلا يكون للتيمم سبب صحيح حينئذ.

أحكام لبس الخفين

ومن نعم الله هذه الخفاف والجوارب التي تلبس في مثل هذا البرد، والمسح على الخفين والجوربين قد ثبت في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وما يلبس على القدمين فيسترهما يجوز المسح عليه، قال الإمام أحمد رحمه الله: ليس في قلبي من المسح على الخفين شيء، أي: من الحرج، فيه أربعون حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم، والخف ما يلبس في الرجل من جلد، والجورب ما يلبس في الرجل مطلقا يكون من صوف، أو كتان، أو غيره، والجرموق خف قصير يلبس على خف آخر.

وكل ما ستر القدمين – موضع غسل القدم في الفرض في الوضوء – جاز المسح عليه إذا تعلق بالقدم، وكان يطلق عليه جورب، أو خف، فهو ليس بكيس، أو غيره، ولا رباط ضاغط، ونحوه، وإنما هو جورب، أو خف إذا ستر القدمين، ولو كان مخرقا على الراجح، وهل كانت خفاف الأنصار والمهاجرين إلا مخرقة مرقعة؟! فإذا كان يتماسك على القدم يغطي موضع الفرض في الوضوء فإنه يجوز المسح عليه ولو كان فيه بعض الثقوب، للمقيم يوم وليلة، أربع وعشرون ساعة، وللمسافر ثلاثة أيام بلياليهن ومن شرطه: أن يلبسهما على طهارة، فإذا توضأ وضوءا كاملا فغسل قدميه، أو اغتسل بنية الطهارة، ثم لبس الجوربين بعدما أنهى غسل القدم الثانية ليكون اللبس على طهارة، وهذا هو الأحوط، ثم لبس الجوربين جاز له أن يمسح عليهما، ومدة المسح إلى أربع وعشرين ساعة، تبدأ من أول مسح بعد الحدث، فأما إذا توضأ ثم لبس جوربيه، ثم خلعهما، ولم ينقض وضوءه جاز أن يلبسهما مرة أخرى، ثم يمسح إذا شاء، ولو فعل ذلك مرارا، أما إذا أحدث وهو لابس جوربيه، ثم خلعهما فإنه لا يجوز أن يمسح

عليهما إلا أن يتوضأ وضوءا جديدا كاملا بغسل القدمين، ويلبس جوربيه للمسح، ولا يشترط النية عند اللبس للمسح، فإذا لبسهما على طهارة، ثم أراد أن يمسح ولو لم يكن نوى ذلك عند اللبس فلا بأس به، وانتهاء مدة المسح لا يبطل الوضوء إلا بناقض، وليس انتهاء مدة المسح بناقض، فلو أنه لبس جوربيه على طهارة ثم أحدث، ثم مسح بعد الحدث يعد أربعا وعشرين ساعة من هذا المسح الذي صار بعد الحدث الأول، فإذا توضأ ومسح في آخرها، ثم انتهت المدة ولم ينقض وضوءه فهو على طهارته، طهارته باقية، وكذلك الراجح أن خلع الجوربين لا ينقض الوضوء إلا بناقض، وخلع الجوربين ليس بناقض، لكن إذا خلعهما، وقد أحدث لا يجوز له أن يمسح عليهما ولا أن يعيد لبسهما ولو أثناء المدة، لأنه أحدث فإذا لبسهما خلع، ثم لبس، لم يلبسهما على طهارة كاملة، والمقصود بها طهارة بغسل القدمين.

إذا نزل المطر

ومن الرخص إذا نزل المطر الجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، ومن شروط الجمع في المطر أن يكون المطر مستمرا من انتهاء الصلاة الأولى إلى بداية الصلاة الثانية، فإذا كان مستمرا من نهاية صلاة الظهر إلى تكبيرة الإحرام بالعصر بعدها فإن الجمع صحيح، فإذا كان مستمرا في النزول، وكان مطرا يبل الأرض والثياب، أي: أنه ليس رشا خفيفا، وإنما هو مطر يبل الأرض والثياب، يشق معه المشي إلى المسجد والذهاب، فإن الجمع حينئذ رخصة.

ويقع في الشتاء أنواع من الفيضانات، والسيول، وفي غير الشتاء في بعض البلدان، ويغرق من يغرق، وينبغي الانتباه للمسير في الأودية، فإن كثيرا من الناس تجرفهم مياه السيول وهم يسيرون في الأودية، وإذا مات الإنسان غرقا فإنه شهيد، لقوله عليه الصلاة والسلام: "الغرق شهيد".

مع الشكر لمجلة الفرقان الكويتية)

❖❖❖

الكنز المنسيّ

مع نماذج من كنوز الصحابة رضي الله عنهم

سليمان بن جاسر بن عبد الكريم الجاسر

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} (آل عمران: ١٠٢).

{يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا} (النساء:١).

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما} (الأحزاب: ٧٠- ٧١).

أمابعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فإن قيمة كل شيء في ثمرته ونفعه، والأشياء لا تتفاضل بأشكالها وأعيانها، وإنما بآثارها المترتبة عليها خيرا وشرا، وأنفع الأشياء وأجلها عائدة ما عاد على العبد بالنفع والثواب في الآخرة، فذلك في الحقيقة هو الكنز، وهذا على التحقيق هو الفوز العظيم، وما سواه من مفاخرات الدنيا ومفاتنها ومغرياتها فهو متاع زائل، وعرض آيل، وإن ظنها أكثر الناس كنزا!

والكنز في اللغة: ما جمع أوصافا خمسة:

"المخبوء – النفيس – الكثير – المُدّخر – المتنافس فيه" [(١)].

فكل مخبوء كثير نفيس يدخر ويتنافس فيه فهو كنز عند أهله، مالا كان – وهو الأصل – أو غيره، وكل مهتم بشيء شغوف به يتخذه كنزا.

وأولى ما اتصف بهذه الأوصاف كنز الآخرة، فإن نفاسته لا تدانيه نفاسة، وكثرته لا توصف، إذ مانحُه الجواد الشكور عزوجل، وهو مدَّخر ثوابه للعبد أحوج ما يكون إليه، وأحرص ما يكون عليه، وهو الأمر الذي لم يأمر الله عز وجل بالمنافسة إلا فيه، فقال بعد ذكر ما في الجنة من كنوز لا توصف: {وفي ذلك فليتنافس المتنافسون} (المطففين:٢٦)، أي: لا ينبغي التنافس إلا فيه، والمنافسة فيما سواه عبث وإضاعة عمر وجهد.

وكنز الآخرة هو ما أعده الله عز وجل لأوليائه المؤمنين وحزبه المفلحين: من النزل، والخيرات المحسوسة.

وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا من الأعمال الصالحة كنزا، كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "يا عبد الله بن قيس! ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله". [(٢)]

وفي حديث شداد بن أوس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات ..." [(٣)]، وذكر دعاء طويلا. فجعل الدعاء كنزا، وأمر بكنزه وتعاهد حفظه والعناية بشأنه، كما يتعاهد التاجر الحريص الشحيح ذهبه وفضته، وسميت كنزا "لأن ثوابها مدخر في الجنة وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس الأموال" [(٤)].

[(١)] انظر: لسان العرب (٥ / ٤٠١)، وتاج العروس (١٥ / ٣٠٤)، ومشارق الأنوار للقاضي عياض (١ / ٣٤٣)، والديباج للسيوطي (٦ / ٦٠).

[(٢)] رواه البخاري (٦٦١٠)، ومسلم (٢٧٠٤).

[(٣)] رواه أحمد (١٧١١٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٢٨).

[(٤)] انظر: شرح النووي على مسلم (١٧ / ٢٦).

واختلف العلماء في معناه فقيل: سمى هذه الكلمة كنزا لأنها كالكنز في نفاسته وصيانته من أعين الناس، أو أنها من ذخائر الجنة أو من محصلات نفائس الجنة[١]، فهي سبب موصل إلى كنز الجنة ونفائسها، فأقيم السبب مقام المسبب.

وإن من أعظم الكنوز المدخرة عند الله عز وجل الصدقة، لاسيما الجارية منها: "الوقف"، فهو كنز من جهة ثوابه وأجره ونفعه المدخر المخبوء للعبد يوم القيامة.

والملاحظ أنه كنز نفيس جدا، لكنه مَنسِيّ عند كثير من الناس إلا من رحم الله، فقد انشغلوا عنه بكنوز الدنيا الفانية التي حلالها حساب، وحرامها عقاب، كنوز يسبقها هم وتعب وفي أثنائها نظيره وبعد تحصيلها كذلك، فصاحبها دائما في هم وشغل وتعب ونصب وكدر، وتركوا كنزا يدخر عند ملك الملوك سبحانه وتعالى، يجده صاحبه يوم الفاقة التي ما بعدها فاقة، والحسرة التي ما بعدها حسرة! ويجده ليكون ممن سيستظل بظل الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله.

ولما علم الصحابة رضي الله عنهم بحقيقة هذا الكنز ونفاسته، وحقارة الدنيا وما فيها ادخروا أموالهم وكنوزهم عند الله عز وجل، وقدموها بين أيديهم ليوم حاجتهم إليها، فضربوا في ذلك الميدان بأوفر السهام وأحظها، فلم يكن منهم ذو مقدرة إلا وقف، واشترى الباقي بالفاني، وتاجر بالحسنات المضاعفات، وتبعهم على ذلك كل موفق معان، وغفل عن ذلك وأهمله كل مخذول مهان!

فأحببت – تعاونا على البر والتقوى – تذكير نفسي وإخواني المسلمين وأخواتي المسلمات بهذا الكنز العظيم المنسي، لعل راقدا يصحو، وغافلا يتذكر، ومقصرا يراجع حساباته قبل زلة القدم، وعدم جدوى الندم، فإن مال المرء حقيقة ما قدمه، وأما ما أبقاه بعده فمال وارثه، للوارث غُنْمُه وعلى المُوَرِّث غُرمه.

أولا: تعريف الوقف

الوقف في اللغة: الحبس والمنع. [٢]

---

[١] مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢٩٣).

[٢] انظر: لسان العرب (٩ / ٣٥٩ – ٣٦٠)، ومعجم لغة الفقهاء (ص: ٥٠٨).

أما في الاصطلاح: فهو: "تحبيس الأصل، وتسبيل الثمرة" [1]. والمراد بالأصل: الرقبة. والثمرة هي: الريع أو الغلة أو المنفعة. وتسبيلها أي: جعلها أو إطلاقها في سبيل الله.

فمن وقف دارا لسكنى طلاب العلم مثلا، فالأصل هو الدار، والريع والغلة والمنفعة هي السكنى، وكذلك من وقف سلاحا على المجاهدين، فإن السلاح أصل، والاستخدام هو المنفعة والريع، وهلم جرا.

وهذا التعريف مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه لما أصاب أرضا بخيبر: "إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها" ([2])، فالصدقة هي: التسبيل للمنفعة.

ثانيا: الأدلة على مشروعية الوقف

أولا: من القرآن الكريم:

قول الله تعالى: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} (آل عمران: ٩٢)، وهذه الآية تدل على أن الإنفاق من المحبوب نيل للبر وولوج إلى رحبته، والوقف من أنفع النفقات وأغلاها، فهو من أول الأفراد دخولا في معنى هذه الآية، بدليل أن أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه لما سمعها بادر إلى وقف أحب أمواله إليه، ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} (آل عمران: ٩٢) قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} (آل عمران:٩٢) وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول

---

[1] المغني، لابن قدامة (٨ / ١٨٤).

[2] رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢).

الله صلى الله عليه وسلم: "بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين". فقال أبوطلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبوطلحة في أقاربه وبني عمه [١].

وكذلك جمع الآيات الدالة على الأمر بالإنفاق في سبل الخير، فإن الوقف يدخل في عمومها، لأنه من أفضل القربات وأولاها، لاستمرار الانتفاع به، وكثرة المنتفعين منه.

ثانيا: من السنة النبوية:

١ – ما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "أصاب عمر أرضا بخيبر، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضا بخيبر، لم أصب مالا قط هو أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها. قال: فتصدق بها عمر: أنه لا يباع أصلها، ولا يبتاع، ولا يورث، ولا يوهب. قال: فتصدق عمر في الفقراء، وفي القربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقا غير متمول فيه [٢].

فتأمل قوله رضي الله عنه: "هو أنفس عندي منه"، وقول أبي طلحة رضي الله عنه: "وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء" تجد أنهم رضي الله عنهم لم ينفقوا بعض المحبوب، بل أنفقوا أحب المحبوب، فرضي الله عنهم وأرضاهم كانوا أسبق الناس للخيرات، وأطوعهم لله عز وجل، وأشدهم حرصا على القربات، عرفوا حقيقة الدنيا وأنها مزرعة للآخرة، فبذروا فيها أحسن البذر وأنفسه وأغلاه، ليحصدوه هناك أوفر الثمر وأحسنه، فخذ يا عبد الله من سيرهم أسوة، ومن حالهم خير قدوة، واعلم أن مالك وديعة عندك، إن لم يذهب عنك ذهبت عنه، فقدم لنفسك ما يسرك في القيامة أن تراه!

---

[١] رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨). وفيه دليل على أن الوقف على القرابة المحتاجين أولى من غيرهم.

[٢] رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢)، وغير متمول: أي: لا يأخذ فوق حاجته.

٢ – ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" [١]، والصدقة الجارية في هذا الحديث محمولة على الوقف، قال الإمام النووي رحمه الله: "قال العلماء: معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها: فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلّفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف. وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه" [٢].

فالعبد الموفق من قدم له ما يستمر له ذخره، ويبقى بعد مماته أجره، والمخذول من أعجبته دنياه فقعد يقطفها حتى فجأه الأجل، وقدم على الله مفلسا.

٣ – ما جاء في صحيح البخاري من حديث عمرو بن الحارث رضي الله عنه ختن[٣] رسول الله صلى الله عليه وسلم أخي جويرية بنت الحارث رضي الله عنها قال: "ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته درهما ولا دينارا ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضا جعلها صدقة" [٤].

ثالثا: الإجماع:

قال القرطبي رحمه الله: "إن المسألة إجماع من الصحابة، وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وعائشة وفاطمة وعمرو بن العاص وابن الزبير وجابرا كلهم وقفوا الأوقاف، وأوقافهم بمكة والمدينة معروفة مشهورة". [٥]

وقال ابن قدامة رحمه الله: قال جابر: "لم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ذو مقدرة إلا وقف". وهذا إجماع منهم، فإن الذي قدر منهم على الوقف وقف، واشتهر ذلك فلم ينكره أحد، فكان إجماعا. اهـ [٦].

---

[١] رواه مسلم (١٦٣١)، ويكثر على ألسنة المتحدثين لفظ "ابن آدم"، ولم أجده.

[٢] شرح النووي على مسلم (١١ / ٨٥).

[٣] (الختن) كل من كن من قبل المرأة، كأبيها وأخيها، وكذلك زوج البنت أو زوج الأخت. انظر المعجم الوسيط (١ / ٢١٨).

[٤] رواه البخاري (٢٧٣٩).

[٥] تفسير القرطبي (٦ / ٣٣٩).

[٦] المغني (٦ / ٤)، وأثر جابر رضي الله عنه رواه الخصاف في أحكام الأوقاف (ص: ٦) وسنده واه فيه الواقدي.

ثالثا: بعض فضائل الوقف

للوقف فضائل كثيرة تعود على الواقف في دنياه وأخراه، إن أخلص لله فيه، ورجا به ما عنده، فمن فضائل الوقف أن:

(١)أجره وثوابه يستمر في الحياة وبعد المماة:

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" [١].

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة أيضا رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، ومصحفا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته". [٢]

(٢)حسناته يثقل بها ميزان المسلم يوم القيامة:

ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة" [٣].

فإذا كان روث الحيوان المحبوس في سبيل الله وبوله – وهما هما عند الناس ضعة وقذارة – يزيدان في ميزان الحابس والواقف، فما الظن بغيرهما! لكن ذلك مشروط بأن يكون وقفه إيمانا واحتسابا.

(٣)الوقف سبب للشفاء من الأمراض بإذن الله تعالى:

---

[١] سبق تخريجه.

[٢] رواه ابن ماجه (٢٤٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٣١).

[٣] رواه البخاري (٢٨٥٣).

ففي الحديث: "داووا مرضاكم بالصدقة" [١]، وقد علم أن الوقف من أفضل الصدقات وأعلاها منزلة.

وجاء في شعب الإيمان للبيهقي من حديث علي بن الحسن بن شقيق، قال: سمعت ابن المبارك، وسأله رجل: يا أبا عبد الرحمن، قرحة خرجت في ركبتي منذ سبع سنين، وقد عالجت بأنواع العلاج، وسألت الأطباء فلم أنتفع به، قال: "اذهب فانظر موضعا يحتاج الناس إلى الماء فاحفر هناك بئرا، فإني أرجو أن تنبع هناك عين، ويمسك عنك الدم" ففعل الرجل فبرئ. [٢]

قال البيهقي بعد إيراده: "وفي هذا المعنى حكاية قرحة شيخنا الحاكم أبي عبد الله رحمه الله، فإنه قرح وجهه وعالجه بأنواع المعالجة فلم يذهب وبقي فيه قريبا من سنة، فسأل الأستاذ الإمام أبا عثمان الصابوني أن يدعو له في مجلسه يوم الجمعة فدعا له، وأكثر الناس في التأمين، فلما كانت الجمعة الأخرى ألقت امرأة في المجلس رقعة بأنها عادت إلى بيتها واجتهدت في الدعاء للحاكم أبي عبد الله تلك الليلة، فرأت في منامها رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه يقول لها: قولوا لأبي عبد الله: يوسع الماء على المسلمين، فجئت بالرقعة إلى الحاكم أبي عبد الله فأمر بسقاية الماء بنيت على باب داره، وحين فرغوا من البناء أمر بصب الماء فيها وطرح الجمد في الماء، وأخذ الناس في الشرب فما مر عليه أسبوع حتى ظهر الشفاء، وزالت تلك القروح، وعاد وجهه إلى أحسن ما كان، وعاش بعد ذلك سنين".

وهذه قصة صحيحة يرويها البيهقي عن شيخه الحاكم، واشتملت على رؤيا عجيبة!

---

[١] رواه الطبراني في الدعاء (١ / ٣٢ – ٣٥)، وفي الكبير (١٠ / ١٢٨)، والأوسط (٢ / ٢٧٤)، والبيهقي في الكبرى (٣ / ٣٨٢)، وفي الشعب (٣ / ٢٨٢) عن جماعة من الصحابة، وقال: إنما يعرف هذا المتن عن الحسن البصري مرسلا. اهـ، وأخرجه عن الحسن مرسلا أبوداود في المراسيل، وقال المنذري: والمرسل أشبه، ومال إليه الألباني في الضعيفة (٣٤٩٢) وانظر منها (٣٥٩١) و (٦١٦٢) وحسنه في صحيح الجامع (٥٦٦٩) والأول أولى.

[٢] رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣١٠٩).

ففيها الحث على حفر الآبار، وفي معناها إنشاء المستشفيات والملاجئ والمصانع والمعامل، وكل عمل يجلب الخير ويسهل أسباب الرزق لعباد الله عز وجل.

(٤)الوقف من أفضل الصدقات للميت:

ففي سنن أبي داود من حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، إن أم سعد ماتت، فأي الصدقة أفضل؟ قال: "الماء". قال: فحفر بئرا، وقال: هذه لأم سعد [١].

(٥)الوقف ظل لك يوم القيامة:

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس" أو قال: "حتى يحكم بين الناس" [٢].

(٦)الوقف حجاب لك من النار:

ففي صحيح البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اتقوا النار ولو بشق تمرة" [٣].

فتأمل كيف كانت الصدقة – والوقف نوع من أنواعها – سبيلا إلى خيري الدنيا والآخرة!

وإذا كانت النار تتقى بشق تمرة متناهية في الصغر، فما الظن بما هو أعظم، وأكثر نفعا!

وبالجملة فكل فضيلة للصدقة فالوقف يحوزها كاملة غير منقوصة، فلا حاجة للإطالة فيما يشترك الجميع في معرفته وفهمه، وإنما كان القصد التنبيه، وقد حصل بالمثال.

(يتبع)



---

[١] رواه أبوداود (١٦٨١)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٧٦).

[٢] رواه ابن حبان (٣٣١٠)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٣٢٩٩).

[٣] رواه البخاري (١٤١٧).

من أخبار الجامعة السلفية

اجتماع الأمين العام مع الأساتذة:

عقد الأمين العام للجامعة فضيلة الشيخ عبد الله سعود بن عبد الوحيد السلفي اجتماعا مع أعضاء هيئة التدريس بالجامعة بعد صلاة المغرب من يوم الاثنين: ٢٧ / ١٢ / ١٤٣٦ هـ = ١٢ / ١٠ / ٢٠١٥م بقاعة دار الضيافة. وذلك للنظر في سير العمل التعليمي والتربوي والدعوي بالجامعة، ومناقشة الأمور اللازمة. وقد توصل الاجتماع إلى عدد من القرارات والتوصيات الهامة لتحسين المستوى التعليمي والتربوي بالجامعة.

مشاركة عدد من أساتذة الجامعة في ملتقى الدعاة بدلهي:

شارك عدد من أساتذة الجامعة السلفية في ملتقى الدعاة (الرابع) المنعقد في الفترة: ١٠ – ١٢ / من شهر محرم ١٤٣٧ هـ = ٢٤ – ٢٦ / من شهر أكتوبر ٢٠١٥م في مدينة دلهي عاصمة الهند. وهم: فضيلة الشيخ محمد يونس بن عبد المتين المدني، وفضيلة الشيخ محمد بن عبد القيوم المدني، وفضيلة الشيخ سعيد ميسور بن محمد إلياس المدني، وفضيلة الشيخ عبد الكبير بن عبد القوي المباركفوري، وفضيلة الشيخ أسعد أعظمي بن محمد أنصاري. وقد ألقى فضيلة الشيخ أسعد أعظمي محاضرة في الملتقى باللغة العربية حول موضوع: "المدارس الإسلامية في الهند: تحديات وحلول". كما قام بإدارة إحدى جلسات الملتقى.

طالب من الجامعة السلفية يشارك في المسابقة الدولية لحفظ القرآن الكريم:

تم ترشيح الطالب أسام الدين بن جاويد علي من السنة الثانية للعالمية للمشاركة في المسابقة الدولية لحفظ القرآن الكريم وتجويده، التي تنعقد في شهر محرم ١٤٣٧هـ بمكة المكرمة بإشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية. وقد سافر الطالب للمشاركة في المسابقة في ٢٠ / ١ / ١٤٣٧ هـ = ٣ / ١١ / ٢٠١٥م.

يجدر بالذكر أن الطالب المذكور أحرز الدرجة الأولى في مسابقة حفظ القرآن الكريم وتجويده، المنعقدة في الجامعة السلفية في مارس ٢٠١٥م. وقد شارك فيها نحو ثمانين طالبا من الدارسين في مختلف المراحل الدراسية بالجامعة.

إعلان عن مسابقة حفظ القرآن الكريم وتجويده:

أعلنت لجنة المسابقات بالجامعة أن مسابقة حفظ القرآن الكريم وتجويده لهذا العام الدراسي ٣٧ – ١٤٣٦ هـ = ١٦ – ٢٠١٥م ستعقد في يومي السبت والأحد: ١٩ – ٢٠ / من شهر ربيع الثاني ١٤٣٧ هـ = ٣٠ – ٣١ / من شهر يناير ٢٠١٦م. وآخر موعد للتسجيل هو يوم الأحد: ٢ / ٢ / ١٤٣٧ هـ = ١٥ / ١١ / ٢٠١٥م. وتتفرع المسابقة إلى ثلاثة فروع كالتالي:

١ – الفرع الأول : حفظ كامل القرآن الكريم مع التجويد

٢ – الفرع الثاني: حفظ عشرين جزءا من القرآن الكريم مع التجويد

٣ – الفرع الثالث: حفظ عشرة أجزاء من القرآن الكريم مع التجويد

فضيلة الشيخ ظفر الحسن يلقي كلمة على طلاب الجامعة:

قام الداعية المعروف الشيخ ظفر الحسن المدني بزيارة الجامعة السلفية بمناسبة انعقاد حفل دعوي لاتحاد أبناء السلفية ببنارس في مساء يوم الأحد: ١٨ / ١ / ١٤٣٧ هـ = ١ / ١١ / ٢٠١٥م. وبعد صلاة الفجر من يوم الاثنين ألقى فضيلته كلمة في مسجد الجامعة حث فيها الطلاب على طلب العلم النافع والاستعاذة من العلم غير النافع، وعلى الحرص على العمل مستشهدا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية مع ذكر نماذج من سير السلف الصالح في طلب العلم والمحافظة على العمل.

محاضرة الشيخ عبد السلام المدني في الجامعة:

قام فضيلة الشيخ عبد السلام المدني – المدرس السابق بالجامعة السلفية – بزيارة الجامعة على دعوة من أمين عام الجامعة لإلقاء المحاضرات على الطلاب، وصل الشيخ إلى الجامعة صباح يوم الأربعاء ٢١ / ١ / ١٤٣٧ هـ = ٤ / ١١ / ٢٠١٥م. وألقى بعد صلاة العشاء من يوم الأربعاء، وكذلك يوم الخميس محاضرتين على الطلاب في قاعة المحاضرات، وأجاب على أسئلة الطلاب واستفساراتهم. وألقى فضيلته خطبة الجمعة في مسجد طيب شاه في مدن فوره، بنارس. ❖❖